

نظرة عامة على عهد السلطان محمد الفاتح

عندما اعتلى السلطان محمد الفاتح العرش عام (١٤٥١م)، استطاع التغلب على الأزمة التي تسبب بها عهد الركود، وتمكنت الدولة من العودة تقريباً إلى الحدود التي كانت عليها قبل حرب "أنقره"، وكانت الدولة العثمانية تمتد في تلك الحقبة من نهر الدانوب غرباً وحتى نهر الفرات شرقاً، وإذا حسبنا مساحة الدولة العثمانية عقب فتح إسطنبول وأضفنا إليها الدول التابعة للعثمانيين نجدها قد بلغت حوالي تسعمائة وأربعة وستين ألف (٩٦٤٠٠٠) كيلومتر مربع، وكان نصف هذه الأراضي في الأناضول، بينما كان النصف الآخر في الروملي، وقد بلغت مساحة الدولة العثمانية بما في ذلك الدول التابعة عند وفاة السلطان الفاتح إلى مليونين ومائتين وأربعة عشر ألف (٢٢١٤٠٠٠) كيلومتر مربع، ولقد أصبحت الدولة العثمانية كأنها دولة أوروبية بسبب أن ثلاثة أرباع أراضيها كانت تقع في البلقان، وقد تغيرت البنية الديموغرافية للدولة العثمانية بعد فتح "صربيا" و"شبه جزيرة بيلوبونيز" و"أفلاق" و"البوسنة"

و"الهَرَسَكُ" و"ألبانيا" و"بوغدان"، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع أعداد السكّان من غير المسلمين مقارنةً بالمسلمين.

رحّبت الشعوب المحليّة والطبقات القروية بالنظام الجديد الذي أسسه العثمانيون في المنطقة عقب الفتوحات التي حقّقوها في الروملي، وضمّت الأراضي التي كان يمتلكها الإقطاعيون والنبلاء في البلاد المفتوحة إلى أملاك الدولة العثمانية، كما ألغيت الضرائب الباهظة والخدمات الجبرية التي كانت مفروضةً على الفلاحين، وقد ساهم إلغاء الخدمات التعسّفية وتأسيس نظام ضريبيّ عادلٍ في تسهيل تبني شعوب البلقان السيادة العثمانية ونظرهم بتعاطفٍ إزاء دولتهم الجديدة، وفي الوقت نفسه اتحد نصارى البلقان من أتباع المذهب الأرثوذكسي من جديد بواسطة بطريركية الروم الأرثوذكس التي تمّ إحيائها عقب فتح إسطنبول، ودخلوا تحت رعاية الدولة العثمانية التي أضحت بمثابة حامية النصارى الأرثوذكسيّون في البلقان من الناحيتين السياسية والدينية، وبهذه الطريقة فقد نجا الأرثوذكسي من ضغط الكاثوليك واستغلال الإيطاليين، الأمر الذي تمخّص عنه ارتفاع قدراتهم الاقتصاديّة، وعليه، فإن السلطان الفاتح تمكّن من فصل الأرثوذكس عن الكاثوليك، وبذلك يكون قد حال دون توخّد العالم النصرانيّ الصليبيّ ضدّ العثمانيين.

ويستوقفنا هنا ما ذكره "دانيال جوفمان (Daniel Goffman)" حول هذا

الموضوع:

”وكانت الأنظمة التي قضى عليها العثمانيون قد فقدت

مشروعيتها كما فقدت احترامها لدى الناس، ولقد قامت الحملة

الصلبية الرابعة عام (١٢٠٤م) بتنصيب "إداريين كاثوليك"، وقد عمد هؤلاء الإداريون الكاثوليك إلى التشدد والتعصب للكاثوليك على حساب الجور والظلم للطائفة الأرثوذكسية، وعمدوا أيضاً إلى فرض ضرائب ثقيلة ونشر الخدمات التعسفية المكروهة، ولم يتورعوا عن استغلال رعاياهم، كما كان الأباطرة البيزنطيون وسطاء في هذه الحملات الاستعمارية وقد يسر الغضب الذي كان في صدور النصارى الروم الأرذوكس إزاء الأنظمة الكاثوليكية مهمة العثمانيين الذين حصل غير المسلمين تحت حكمهم على الثروات وأصبحوا أغنياء، فلم يرجح العثمانيون ضيق أفق التفكير الذي كان مهيمناً على العالمين الكاثوليك والارثوذكسي، وعضواً عن ذلك وضعوا أسساً مجتمعيةً جديدةً يستطيع التعايش معها غير المسلم بحريّة وكرامة تامة، واستفادوا أيضاً من العادات السائدة في آسيا الوسطى من تسامحٍ نسبيّ وتشاركٍ وتعدّدٍ، ولهذا السبب جذب هذا الخيار انتباه الشعوب المطحونة للدول النصرانية الإقصائية“.

وإذا حللنا المخطوطات من القرن الخامس عشر، نجد أن الرأي العام الأرثوذكسي في تلك الحقبة اعتبر السلطان الفاتح حاكماً لهم وهو الشخص الذي يستحقّ عرش أباطرة بيزنطة:

- "لقد كُتِبَ هذا النص في عهد أميرنا المجلّ محمد بك".
- "لقد كُتِبَ هذا النص في السنة الثانية والعشرين لحكم القيصر المسلم العظيم محمد بك، وهو نفس العام الذي بسط فيه الأتراك نفوذهم على مدينة أشقودرة".
- "ولقد كُتِبَ هذا النص في عهد القيصر المسلم حاكمنا محمد بك الذي خاض معركةً ضدّ أوزون حسن هذه السنة، حيث

لم يسمح حاكمنا لعدوّه بدخول الأراضي الخاضعة لسيطرته“.

ويقول المؤرخ الروماني الشهير "نيكولا زورجا" نقلاً عن جنديّ إنكشاريّ ذي أصلٍ صربيّ عملَ بالجيش العثماني لسنواتٍ طويلةٍ ما يلي:

”كان الإديريون العثمانيون يحكمون بالعدل على مواطنيهم وسكان الدول الملحقة بدولتهم دون التفرقة بينهم على أسسٍ دينيةٍ ويتجول الموظفون العثمانيون بجميع أنحاء البلد أربع مرّات في العام لتفقد أحوال الرعيّة، ولم ينتزع العثمانيون في البلاد التي فتحوها أراضي الفلاحين أو حوانيت التجّار أو كنائس الرهبان من بين أيديهم، وأما القضاة فكانوا يقضون بين المسلمين وفق قواعد الإسلام في الخلافات التي تنشأ بينهم، ويستطيع من يريد أن يتقدّم بطلبٍ إلى العمداء والرهبان وحتى المطارنة من أجل إصدار القرار بشأنه، وكان من تُسوّل له نفسه استغلال الفقراء يلقي أقسى العقوبات، وربما تصبح حياة الإنسان في خطرٍ إذا تجرّأ حتى على سرقة دجاجةٍ من فلاح“.

وفيما يلي نذكر التقييم العام للمؤرخ "نيكولا يورجا (Nicolae Jorga)"

للسلطان محمد الفاتح وعهده:

”... كان السلام يسود الإمبراطورية الجديدة، كما كان الحال في عهود روما القديمة، وعادت حقبة سلام روما (Pax Roman) من جديد، وكان الجميع سعيداً بهذا، وإذا ما نظرنا بعين الاعتبار إلى التقاليد الإقطاعية البولندية والمجرية التي أجبرت الفلاحين وسائر السكان على تحمل الكثير من المعاناة رغم ما وُعدوا به من امتيازات، والقلق التي تسبّب بها النظام المتبع في الدول

السلافية^(١٩) الصغيرة، والضغط الشديد التي كان يمارسها الإداريون البيزنطيون الذين كانوا يستغلون رعاياهم باستمرار، والفوضى التي سيطرت على ألمانيا التي يحكمها الإمبراطور فريدريك الذي كان يفكر فقط في مصلحة الشخصية، ثم قارئاً ذلك بما كانت عليه الدول تحت الحكم العثماني فسنجد أن منظومة هذه الدول كانت تنعم بالأمن والأمان والاستقرار؛ فما كان أحدٌ يخشى على نفسه بسبب دينه وعرقه، إذاً لقد كانت العادات والتقاليد مصونة لا يستطيع أحدٌ أن يمسه بسوء^{٢٠}.

إذا صنفنا الحملات التي خاضها السلطان محمد الفاتح خارج البلقان وفق أهدافها العسكرية والاقتصادية والسياسية، فيمكننا أن نقول:

فمن أجل تحقيق الوحدة السياسية في الأناضول: فُتحت "أماسرا" و"سينوب" و"طرابزون"، وتمت السيطرة على دولة "قرمان"، ودُحر جيش "أق قيونلو" في موقعة "أوتلوكبلي" بعدما ظهروا على الساحة كتهديد كبير للدولة العثمانية.

من أجل إحكام السيطرة على منطقة البحر الأسود ومراقبة طرق التجارة في تلك المنطقة: فُتحت سواحل البحر الأسود الجنوبية مثل "أماسرا" و"سينوب" و"طرابزون"، وتمت السيطرة على القرم شمالي البحر الأسود، فيما دخلت "بوغدان" - الواقعة غربي البحر الأسود - تحت السيطرة العثمانية.

(١٩) السلاف أو الصقالية: هم مجموعة عرقية لغوية يتحدثون باللغات السلافية. يستقرون أساساً في أوروبا الوسطى، وأوروبا الشرقية، ودول البلقان وقاموا في العصور الأخيرة باستيطان آسيا الشمالية، وينقسم السلاف إلى سلاف شرقيين (الروس والأوكرانيين والبيلاروسيين)، سلاف غربيين (البولنديين والسلوفاكيين والتشيكيين) وسلاف جنوبيين (السلويفيين والكروات والصرب والمقدونيين والبوسنيين والبلغار).

وأما في سبيل السيطرة على بحر "إيجه" والبحر الأبيض؛ فتحت جزر بحر "إيجه" والجزر الأيونية الواقعة في البحر الأدرياتيكي، وقام العثمانيون بحملة صوب إيطاليا، ولقد زادت قوة الأسطول العثماني الذي كان ضعيفاً في السابق، بشكل كبير بفضل الغزوات البحرية التي خرجها في البحرين الأسود والأدرياتيكي وبحر إيجه، الأمر الذي أكسب البحرية العثمانية مكانة كبيرة في الساحة البحرية.

إن السلطان محمد الفاتح هو المؤسس الحقيقي للأسطول العثماني، ففي الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تمتلك نحو ثلاثين قادمًا (سفينة قاذرًا) عام (١٤٥١ م) عند تولي السلطان العرش، وصل هذا العدد إلى مائتين وخمسين سفينة حربية وحوالي خمسمائة سفينة شحن عام (١٤٨١ م) عند وفاته، ويصف المؤرخ الألماني "فرانز بابنجر" هذا التطور بـ"المدهش"، موضحًا أن الأسطول العثماني صار يتفوق على أساطيل أوروبا.

ولقد أحرزت تكنولوجيا صناعة المدافع العثمانية تطورًا فائقًا في عهد السلطان الفاتح، وكان انتقال نظام المدفعية الحديثة من العثمانيين إلى أوروبا إبدانًا بنهاية النظام الإقطاعي الذي استمر لألف عام، وكانت أوروبا قد بدأت تستخدم المدافع البدائية في حروبها اعتبارًا من القرن الرابع عشر، وعلى سبيل المثال فقد استخدم الإنجليز هذا النوع من المدافع ضد الفرنسيين في معركة "كيرسي" في السادس والعشرين من أغسطس/آب عام (١٣٤٦ م) في إطار حرب "المائة عام" (١٣٣٧-١٤٥٣ م)، وأما العثمانيون فقد جربوا أول مدفع لهم في حرب "كوسوفو الأولى" عام (١٣٨٩ م)، وكان الهدف الرئيس لاستخدام هذا النوع من

المدافع البدائية ينصبُ بشكلٍ أساسيٍّ على بثِّ الرعب بين صفوف العدوِّ وإخافة حيواناتهم، غير أن السلطان الفاتح استطاع هدم أسوار القسطنطينية بفضل المدافع التي كلف جيشه بصناعتها، واستخدمها بهدف القضاء على جيوش العدوِّ في ميادين القتال، وكان المدفع الذي أُطلق عليه "شاهي" أو الملكي، والذي استخدمه في حصار القسطنطينية، يمتلك تأثيراً قوياً لم يره أحدٌ من قبل، وكان نتيجةً لعملٍ هندسيٍّ دقيقٍ ومتميِّزٍ للغاية، كما صنع العثمانيون في أثناء الحصار أول مدفع "هاون" في تاريخ البشرية، هذا إضافةً إلى أن العثمانيين صنعوا مدافع متفجرةً لاستخدامها في ميادين المعارك، وقد نُقلت مستلزمات الحصار إلى منطقة الحصار في الغزوات التي خرج فيها الجيش لحصار قلاع ألبانيا الحصينة، ومن ثم صُبت المدافع بشكلٍ سريعٍ أمام القلعة، وتُعتبر هذه الواقعة التي رواها المؤرخ "كريتوفولوس" من أكثر النماذج -التي توضح المستوى الذي وصلته صناعة المدافع لدى العثمانيين- إثارةً.

لقد حوّل العثمانيون المدفع إلى وسيلةٍ مؤثرةٍ للغاية في الحصار والحرب، وأثبتوا أنه من الممكن تدميرُ الأسوار والقلاع والحصون العظيمة، وعقب هذه التطورات، لم يستغرق خضوع ملوك أوروبا للإقطاعيين وإلحاق أراضيهم كافة بهم وقتاً طويلاً، وفي الوقت الذي قويت فيه الممالك والملكيات المركزية اعتباراً من القرن السادس عشر، فإن الإقطاعيين هُزموا أمام الملوك وفقدوا أراضيهم، ولقد تغيّرت الأنظمة السياسية لدول أوروبا، وحلَّ نظام الدولة المركزيَّة محلَّ النظام الإقطاعي.

كان من بين الأحداث التي غيرت مجرى التاريخ العالمي ذلك الدور الكبير الذي لعبه العثمانيون في بدء الاكتشافات الجغرافية، ذلك

أن العثمانيين أصبحوا أصحاب الكلمة العليا في الإشراف على طرق الحرير والتوابل بعدما وضعوا إسطنبول والبحر الأسود تحت سيطرتهم، وأصبحت الدول الأوروبية تخضع إلى الأتراك من الناحية التجارية، وبعدها صار ملوك أوروبا محاصرين تمامًا عقب الفتوحات التي قام بها الأسطول العثماني في بحر "إيجّه" والبحر الأدرياتيكي، بحثوا عن طرق تجارية جديدة بهدف الوصول بطريقة مباشرة إلى الهند والشرق الأقصى، وهو ما مهد الأرضية لبدء الاكتشافات الجغرافية.

كان السلطان محمد الفاتح أحد أعظم رجال الدولة في التاريخ، وقد أخذ السلطان على عاتقه طيلة حياته مهمة تحويل الدولة العثمانية إلى إمبراطورية كبيرة، وبادر إلى تحقيق الفتوحات من أجل الوصول إلى هذه الغاية، كما قام بدراسات تنظيمية جذرية، ويقول المؤرخ التركي الشهير "خليل إينالجيك" ما يلي:

"لقد جمع الفاتح في شخصيته مميزات مهمتين يحملهما مؤسسو الإمبراطوريات: إحداهما كونه زعيمًا عظيمًا يسعى من أجل السيطرة على العالم، والثانية كونه رجلًا مثقفًا صاحب رؤية واسعة، ولقد سيطرت على جميع أفعال هذا السلطان العظيم فكرة تحويل دولته إلى أقوى إمبراطوريات العالم وأكثرها تفوقًا في المجالات كافة".

وبقدر ما كان السلطان الفاتح قائدًا عسكريًا من الطراز الرفيع، كان دبلوماسيًا ماهرًا، وقد اضطرّ في بعض الأوقات أن يدخل في حربٍ ضدّ أربع أو خمس دول في آسيا وأوروبا في آنٍ واحدٍ، ليجد نفسه محاصرًا من الشرق والغرب من قبل أعدائه، واستطاع السلطان الوصول إلى مراده

حتى في هذه الفترات من خلال التنازل لأعدائه عن بعض الامتيازات أحياناً، وأحياناً أخرى بمراوغتهم أو الإيقاع بينهم.

استطاع عثمان بك تأسيس إمارة من بطن قبلية "قايي"، ثم حوّل أوزخان بك ومراد بك هذه الإمارة إلى دولةٍ بفضل أعمال التنظيم التي قاموا بها، وأما السلطان محمد الفاتح فقد حوّل الدولة العثمانية إلى إمبراطوريةٍ، وأراد أن يجعل إسطنبول مركزاً لمنطقة البحر الأبيض المتوسط، وقد أسس هذا السلطان متعدّد المهارات بنيةً مركزيةً قويةً في إدارة الدولة، ونجح في أن يجعل من الأناضول والروملي والبلقان والبحر الأسود وبحر "إيجّه" دولةً واحدةً مركزها إسطنبول.

وقد بذل السلطان محمد الفاتح جهوداً جبّارةً من أجل تأسيس إمبراطوريةٍ مركزيةٍ حديثة، وبادر في البداية إلى إبعاد العائلات التركية الأرستقراطية - التي تحدّ من سلطة الحاكم - من المناصب المهمّة بالدولة، وأخضع رجال الدولة القادمين من طبقة "الدوشيرمه" (٢٠) - الذين عينهم مكانهم - لطاعته المطلقة، ولقد وُجّهت ضربةٌ قاصمةٌ للطبقة النبيلة التركية في تلك الحقبة، وبدأت سيطرة طبقة "الدوشيرمه" على مناصب الدولة، هذا فضلاً عن أنه عقب وفاة السلطان الفاتح دعمت "الدوشيرمه" الأمير بايزيد للوصول إلى العرش، بينما دعم التركمان الأمير "جَم"، غير أن "الدوشيرمه" انتصروا في هذا الصراع، وفي بداية سلطنته قام السلطان

(٢٠) "الدوشيرمه" (Devşirme): مصطلحٌ عثماني أُطلق على أولاد النصارى الذين تمّ جلبهم للالتحاق بالسلك العسكري بشكلٍ خاص، وتراوح أعمارهم ما بين ثمانية أعوام إلى خمسة عشر عامًا وتتوفّر فيهم اللياقة البدنية، وكان يتمّ تظهيرهم ونظفهم بالشهادة ليدخلوا في الإسلام. (صابان، سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ١١٥).

بعزل الصدر الأعظم "جاندرلي خليل باشا" الذي كان يتزعم الطبقة الأرستقراطية التركية، وعمل في السنوات اللاحقة مع الصدور العظام المنحدرين من طبقة "الدوشرمة".

كان "محمود باشا"، -ذا الأب الرومي والأم الصربية-، أنجح الشخصيات التي تولت منصب الصدر الأعظم في عهد السلطان محمد الفاتح، وكان "محمود باشا" قد أُسر من قبل قوات المغاوير العثمانية بالقرب من مدينة "سمنديرا"، ثم بيع لـ "محمود أغا" في "أدرنه" عام (١٤٢٧م)، وسرعان ما قُدّم للسلطان مراد الثاني بعدما لوحظ ذكاؤه، وبعد أن تلقى العلم لفترة في مدرسة "أندرون" في القصر، دخل في خدمة الأمير محمد، وكان شقيق "محمود باشا"، المنحدر من أعرق عائلات صربيا، يدعى "ميشيل أنجيلوفيتش"، حيث كان من أبرز رجال الدولة في صربيا، وقد تولّى هذا الأخير زعامة اللوبي التركي الذي قَدّم الدعم لفتح صربيا على أيدي العثمانيين، وهو ابن خالة الفيلسوف "جيروبيجوس أميروتزس" الذي كان حاجب إمبرطور الروم في طرابزون "ديفيد كومينوس"، ولقد حقّق "محمود باشا" إنجازات ناجحة للغاية خلال فترة تولّيه منصب الصدر الأعظمي للمرة الأولى بين عامي (١٤٤٥-١٤٦٧م)، واختير للمرة الثانية للمنصب عام (١٤٧٢م)، ولكنه عُزل من منصبه وأُعدم عام (١٤٧٤م) بسبب تحريض بعض رجال الدولة السلطان عليه، وقد أفضى إعدامه إلى انتشار حالة من الحزن الشديد بين أرباب العلم والفن، حيث كان يتمتّع بحبّ كبير بين الشعب حتى أُطلق عليه لقب "الولي"، وتصفه المصادر التاريخية الغربية لتلك الحقبة بأنه "أشجع رجال القصر العثماني وأغزرهم علمًا"، وتمدحه كثيرًا، وتشير تلك المصادر أن القصر

كان يأخذ توصيات "محمود باشا" بعين الاعتبار حتى بعد عزله من منصب الصدر الأعظم.

وكان "محمد باشا" من بين الأسماء التي تولّت منصب الصدر الأعظم في عهد السلطان الفاتح، ولأنه ينحدر من أصولٍ روميةٍ، اشتهر بين الشعب باسم "محمد باشا الرومي"، تولّى منصب الصدارة العظمى في الفترة بين عامي (١٤٦٧-١٤٧٠ م)، لكنه لم يترك انطباعاً جيداً بين أفراد الشعب، ويروي المؤرخ الذي عاصر ذلك العهد "عاشق باشا زاده" إن "محمد باشا" كان يسيء معاملة الشعب، وخاصّة الأتراك؛ مما دفع السلطان الفاتح إلى إعدامه.

يعتبر "جديك أحمد باشا"، فاتح إيطاليا، من أهمّ الشخصيات التي تولّت منصب الصدر الأعظم في عهد السلطان الفاتح، وهو زوج ابنة "إسحاق باشا" أحد الصدور العظام ذوي الأصول التركية في عهد السلطان الفاتح، وقد ترعرع "أحمد باشا"، وسط الإنكشارية، فهو من أصلٍ صربيٍّ أو ألبانيٍّ، وقد تولّى الصدارة العظمى فيما بين عامي (١٤٧٤-١٤٧٧ م)، ولعب دوراً كبيراً في إخضاع دولة القرم للسيطرة العثمانية عام (١٤٧٥ م)، وأما الشخصيات ذات الأصل التركي التي تولّت منصب الصدر الأعظم في عهد السلطان الفاتح فهي: جاندرلي خليل باشا، إسحاق باشا، "محمد باشا القرماني".

وكان من الشخصيات المنحدرة من أصولٍ روميةٍ كلٌّ من "مسيح باشا" الذي تولّى قيادة الأسطول البحري لفترة في عهد السلطان الفاتح وتقلّد الصدارة العظمى في عهد السلطان بايزيد الثاني وكذلك القائد

المغوار أمير الأمراء "خاص مراد باشا" -الذي سقط شهيداً في معركة "أوتلوكبلي" - ويرجع أصل "زَاغانوس باشا" -الذي كان يُعارض فريق "جاندرلي خليل باشا" في أول عهد السلطان الفاتح، والذي وقف إلى جانب السلطان ودعمه لتحقيق حلم فتح القسطنطينية حتى النهاية - إلى ألبانيا، كما أن "داود باشا" أمير أمراء الروملي خلال حصار مدينة أشقودرة ينحدر هو كذلك من أصول ألبانية، وأما "خادم سليمان باشا" أمير أمراء الروملي فكان من أصل بوسني، فيما كان الصدر الأعظم الشهير في عهد السلطان ياوز سليم "هرسك زاده أحمد باشا" هو ابن دوق "البوسنة" "ستيفان"، وقد تربى في القصر العثماني في عهد السلطان الفاتح، بينما كان الأميرال "بلطة أوغلو سليمان بك"، الذي عُزل من منصبه لفشله في المعركة البحرية ضدّ اللاتينيين أيام حصار إسطنبول، ينحدر من أسرة بلغارية نبيلة.

زاد السلطان الفاتح من سلطته المطلقة بفضل الشخصيات المنحدرة من طبقة "الدوشرمة" التي أسند إليها مناصب عليا بالدولة، واستطاع السلطان -من ناحية أخرى- ضبط شؤون جيش "قابي قولو" وأعاد تنظيمه، وأجبره على الطاعة المطلقة، وكان السلطان يادر دائماً إلى تجديد أسلحة جنود "القابي قولو" -الذين هم أمهر جنود الجيش العثماني- ويجدد تجهيزاتهم العسكرية باستمرار، ويرفع رواتبهم، وكانت هذه الفئة من الجنود هي الركيزة الوحيدة التي سيعتمد عليها السلطان الفاتح في الحملات المكثفة التي قام بها من أجل فتح القسطنطينية، واستطاع السلطان أن يخضع لإمرته قادة قوات المغاوير، الذين كانوا يتحركون بشكل مستقل ويكتفون مساعيهم للوصول إلى السلطة عقب عهد الركود، ونجح في أن يلقي

بظلاله عليهم بصفته "الحاكم الغازي"، وكان نموذج الدولة المركزيّة التي أسسها السلطان الفاتح هو الكيان السياسي الوحيد الذي لم يكن له نظيرٌ في أوروبا في تلك الحقبة قط، وقد أسس العثمانيون في عهد الفاتح أول نموذج من نماذج الإمبراطوريّات المركزيّة التي سيزيد عدد نماذجها في العصور اللاحقة.

وكان هدف السلطان الرئيس قد تركّز على تحقيق فكرة "أن يكون حاكم العالم بصفته إمبراطورًا مطلقًا"، ويكتب المؤرخ "جاكوبو لانجوتشي"، الذي كان موجودًا في إسطنبول في السنوات التي تلت فتحها، أن هدف السلطان كان منصبًا على تأسيس إمبراطوريّة واحدة في العالم يسودها إمامٌ واحدٌ وحاكميّةٌ واحدةٌ، وقد أشار المؤرخ "ابن كمال" إلى فكرة السيطرة على العالم التي راودت السلطان الفاتح بقوله: "كان يذكر الحاكميّة العالميّة دائمًا"، وكان السلطان يصبو في سبيل تحقيق هذه الغاية إلى أن يكون ممثّل الجهاد في العالم الإسلامي وحامي بلاد المسلمين.

ولقد سيطرت حالةٌ من السعادة البالغة على العالم الإسلاميّ ابتهاجًا بصمود العثمانيين أمام الصليبيين، والمعارك التي انتصروا فيها، والفتوحات التي حققوها، ونشرهم للإسلام في شبه جزيرة البلقان، فعلى سبيل المثال، يقول "ابن كمال" إن الاحتفالات التي نُظمت في القاهرة عاصمة الخلافة الإسلاميّة ابتهاجًا بفتح القسطنطينيّة دامت لأيام، وأجرت فرق العزف الموسيقي حفلات أمام أفراد الشعب، وتليت الأدعية في الجوامع على أرواح الشهداء بأمرٍ من الخليفة العبّاسيّ، كما أوفد السلطان المملوكي رسلاً إلى السلطان الفاتح لتهنئته بفتح القسطنطينيّة.

وعلى العكس تمامًا، أصيب الرأي العام في أوروبا بخيبة أملٍ وحزنٍ كبيرين لسيطرة العثمانيين على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية وآخر قلعةٍ للنصرايين في الشرق، وقد قيّم المؤرّخ الفرنسي والأكاديمي المعروف "رين جروسيه" (*Rene Groesset*) "فتح إسطنبول وعلاقات الشرق بالغرب من منظورٍ واسعٍ للغاية، ويعلّق كنتيجةٍ لتحليله العميق واستقرائه الدقيق بقوله:

"... وقد انتهى زحف العثمانيين من "بورصا" وحتى "فيينا" بانسحابهم حتى مدينة "أدرنة" عام (١٩١٢م)، وكانت روما هي آخر المعامل التي فتحتها العثمانيون؛ ذلك أن السلطنة قد تتابع عليها الكثير من السلاطين العظماء الذين تتابعوا تداول العرش واحدًا تلو الآخر، وكان هؤلاء السلاطين يتمتعون بدهاءٍ عسكريٍّ منقطع النظير، وكانوا يعون جيدًا ماذا يريدون، ولم يكونوا يحملون غايةً في عقولهم سوى فتح القسطنطينية، وقد أحيوا بذلك المبادئ المقدسة للغزوات التي خرج فيها رسولهم ﷺ بعد قرنينٍ طويلةٍ".

لم يكن السلطان محمد الفاتح يطمح لأن يكون حاكمًا عثمانيًا فقط؛ إذ كان يعتبر نفسه وريث أباطرة روما كذلك، وكان العالم الكريتي "جورجيوس تراييزونتيوس" (*Georgios Trapezuntios*) قد قال للسلطان الفاتح عام (١٤٦٦م) ما يلي:

"لا أحد يشك في أنك إمبراطور روما، فمن يملك مدينة عرش الإمبراطورية فهو الإمبراطور من الناحية القانونية، والقسطنطينية هي مدينة عرش الإمبراطورية الرومانية".

وكان "تراييزونتيوس" قد عاش في الفترة ما بين عامي (١٣٩٥-١٤٨٤م)، ومات في روما عن عمرٍ ناهز التاسعة والثمانين، وكان عمره

إبان فتح القسطنطينية خمسة وخمسين عامًا، فيما كان يبلغ واحدًا وسبعين عامًا عندما قال هذه الكلمات، حيث كان رجلًا ناضجًا يعي جيدًا ما يقول، ويدعي "تراييزونتيوس" أن السلطان محمد الفاتح أعظم من "كوروش" و"الإسكندر الأكبر" و"يوليوس قيصر"، ويقول أيضًا:

"لم يقض السلطان الفاتح على الإمبراطورية الرومانية، فالإمبراطورية في حد ذاتها ما زالت قائمة ولكنها إمبراطورية مسلمة كما كانت من قبل إمبراطورية وثنية ونصرانية وأرثوذكسية، ولذلك فإنه يمكننا القول: إن الإمبراطورية الإسلامية العثمانية ابتدأت وتوسعت وازدهرت من خلال الأماكن التي فتحها العثمانيون ومن خلال التصرفات العظيمة التي قاموا بها".

فيما يقول "جرينارد (Grenard)":

"يجب اعتبار العثمانيين الجيل المؤسس الثاني لإمبراطورية روما الشرقية من أجل فهم تاريخهم جيدًا، هذا فضلًا عن أنهم بدؤوا محاولاتهم للفتح من المنطقة الجغرافية الأوروبية التي أطلقوا عليها اسم الروملي، ولقد ظهرت على الساحة الأوروبية إمبراطورية جديدة بظهور الأسرة العثمانية، وهناك العديد من المؤرخين البيزنطيين مثل "تشاكونديلس (Chalcondyles)" و"كريتوفولوس (Kritovulos)" قالوا إن العثمانيين أخذوا مكان أباطرة روما، وهم -أي المؤرخون- يعتبرون الأسرة العثمانية هي الوريث الشرعي لروما".

لقد سيطر العثمانيون على مناطق إمبراطورية روما الشرقية، ثم حان الدور على إمبراطورية روما الغربية، غير أن الموت المفاجئ للسلطان محمد الفاتح حال دون تنفيذ هذا المشروع الكبير، ولم يستطع خلفاؤه

تحقيق هذه الغاية، كما كان للظروف والأحوال المتغيرة أثر كبير في هذا أيضًا.

كان القصر العثماني في عهد السلطان محمد الفاتح يضم، إلى جانب الندماء المسلمين، كادرًا من المستشارين الإيطاليين والبيزنطيين، ولقد تمكن السلطان -بواسطة هؤلاء المستشارين- من الاطلاع على ثقافة النهضة وتاريخ روما عن كثب، ويرى "بول فوري" أن النهضة الأوروبية بدأت بفتح إسطنبول عام (١٤٥٣م)، وكانت شخصية الفاتح، التي صارت نموذجًا للحاكم المثالي في عصر النهضة، تلقى المدح والثناء في روسيا كما كان كذلك الحال في أوروبا.

وينقل الخبير الروسي بشؤون التاريخ "أقدس نعمت كورات (Akdes Nimet Kurat)" في كتابه الذي يحمل اسم "تاريخ روسيا"، أن الأديب الروسي "بريفيتوف (Perevetov)" قد عرض كتابًا اسمه "حول السلطان محمد الفاتح" على القيصر "إيفان الرابع"، وعرض شخصية الفاتح على القيصر لتكون نموذجًا يُحتذى به بصفته فيلسوفًا ورجل دولة وسياسيًا وعسكريًا عظيمًا، كما أُلّفَت ستُّ مسرحيات تتناول حياة السلطان الفاتح في بريطانيا فيما بين عامي (١٥٩٤-١٧٤٩م).

وقد قال المؤرخ البيزنطي "كريتوفولوس (Kritovulos)" بينما كان يقدم كتابه إلى السلطان الفاتح:

"إلى السلطان محمد المظفر الغالب بإذن الله وحوله، سيد

البر والبحر، سلطان السلاطين، أعظم الأباطرة".

وكان من بين الكتاب اللاتينيين الذين قدّموا مؤلفاتهم إلى السلطان الفاتح نجد "فرانشيسكو برلينجيري (Francesco Berlinghieri)" و"روبيرتو

بالتوريا (Roberto Balturia)، " هذا إضافةً إلى أن "ستيفانو إيميليانو (Stefano Emiliano) " أُلّفَ مرثيةً عند وفاة السلطان، وأما أشهر الأشعار المقدّمة إلى السلطان فكانت القصيدة التي قدمها "جيوفاني ماريا فيلفو (Giovanni Maria Fielfo) " والمكتوبة باللغة اللاتينية ومكوّنة من أربعة آلاف وسبعمئة وستة أبيات، وكان الشعراء الإيطاليون يحيون في مثل هذه القصائد من أعماق قلوبهم السلطان محمد الفاتح باعتباره واحداً من أبرز الشخصيات التي رعت الفنّ والفنانين في عصر النهضة، وكانوا يقولون إنهم بحاجة إلى زعيمٍ قويٍّ يوحد إيطاليا المعروفة بكيانها السياسي الممزّق.

زادت نفقات ميزانية الإمبراطورية كثيرًا في عهد السلطان الفاتح، وصُرفت أموال طائلة في سبيل إعادة إعمار إسطنبول المفتوحة وتميئتها، ومن ناحيةٍ أخرى: كانت الحروب التي خاضها السلطان الفاتح، الذي لم يعرف طيلة حياته معنى الكلل أو الملل، والحملات التي خرج فيها على مدار ثلاثة عقود قد كلفت خزينة الدولة نفقات باهظة، وارتفعت المصارف بشكلٍ كبيرٍ للغاية من أجل زيادة أعداد الجنود والإنكشاريين في قلاع المدن المفتوحة لحمايتهم، وزيادة رواتب الجنود، وتجديد مستلزمات الحرب والأسلحة لدى الجيش باستمرارٍ.

ولذا كان السلطان مضطراً لإيجاد موارد دخلٍ جديدةٍ لتلبية هذه الاحتياجات، فلم يتردّد في استغلال إمكانيات الدولة والشعب إلى أقصى درجة، واتّخذ تدابير جذريّة في سبيل تحقيق هذه الغاية، وهو الأمر الذي أفضى إلى انتشار حالةٍ من السخط بين الشعب.

يمكننا أن نسرد التدابير التي اتّخذها السلطان الفاتح لزيادة موارد الدولة كالتالي: كان يأمر خلال فترة سلطنته بجمع العملة المتداولة

في الأسواق مرّة كلّ خمسة أعوام تقريباً، ليستبدلها ويقتطع من قيمتها الخمس، ويكون بذلك قد فرض نوعاً من الضريبة على المعاملات النقدية، كما فرض احتكاراً على السلع الأساسية مثل الصابون والملح والشمع، وأعطاهما إلى المستأجرين، وبذلك تمكّن من توفير موارد ماديّة كبيرة لخزينة الدولة، ألغى كذلك وثائق ملكية الأراضي التي كانت مملوكة للدولة في الماضي، والتي تحوّلت إلى أراضٍ وقفية أو مملوكة؛ وضمّها من جديد لملكيّة الدولة، ومن ثم وزّع هذه الأراضي على الإقطاعيين بهدف زيادة عدد الفرسان الذين يتكفل الإقطاعيون بتجهيز عتادهم العسكري، وتبرّع بالعقارات التي كانت تُعتبر ملكاً للدولة عقب فتح القسطنطينية إلى الذين قدموا إلى إسطنبول، وذلك بهدف تشجيع الهجرة من الأقاليم إلى العاصمة الجديدة، غير أنه فرض إيجاباً على تلك الأملاك في وقت لاحق.

لقد منحت هذه الإجراءات الجذرية قوّة لخزينة الدولة، إلا أنها أسخّطت عامّة الشعب والعلماء وأهل الطرق الصوفية والتجار كثيراً، ولهذا السبب لم يدعم الرأي العام ورجال الدولة الأمير "جَم" في صراعه على العرش عقب وفاة والده، وآثروا دعم شقيقه الأمير بايزيد، ذلك أنهم كانوا يعتبرون الأمير "جَم" وريثاً لسياسات والده السلطان الفاتح.



السلطان محمد الفاتح بريشة الفنان "لوني (Levni)"

obeikandi.com

"دستور آل عثمان"

يحمل عهد السلطان محمد الفاتح أهميّة كبرى من ناحية تطوّر مفهوم القانون في تاريخ الدولة العثمانية، وقد أسّس السلطان إمبراطوريّةً مركزيّةً من خلال التعديلات التي أدخلها على جهاز الدولة والنظام القانوني، وسعى في سبيل ترسيخ سلطته المطلقة، وكتب الكاتب "ليث زاده محمد أفندي" "دستور آل عثمان"، الذي يمكن أن نعتبره أوّل دستورٍ عثمانيّ كُتب بتعليمات من السلطان محمد الفاتح خلال فترة تولّي "محمد باشا القاراماني" منصب الصدر الأعظم، ونفهم من العبارة التي وردت في هذا الكتاب، والتي تقول "هذا الكتاب هو قانون آبائي وأجدادي وقانوني أنا أيضًا"، أن الأحكام الموضوعة في الأزمنة المتعاقبة منذ تأسيس الدولة والمدونة في الديوان السلطاني، قد تمّ إتمامها وتدوينها مع مراعاة الظروف الحياتية الجديدة، ويتمتع كتاب القانون هذا بأهميّة عظيمة من أجل الاطلاع على تاريخ تنظيم الدولة العثمانية ومؤسّساتها، وقد صار هذا الكتاب منظرًا لشؤون مؤسّسات الدولة لمئات السنين.

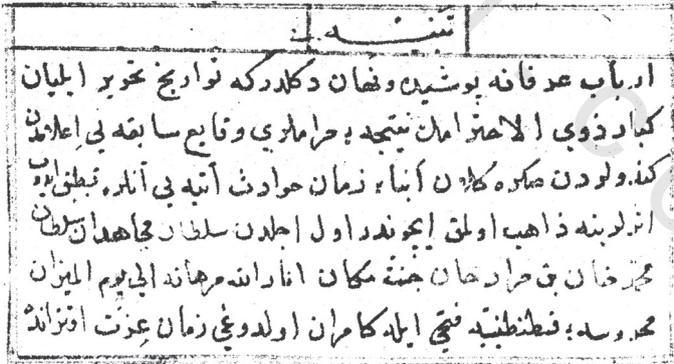
يتألّف كتاب القانون المؤلّف في عهد السلطان محمد

الفاتح من ثلاثة أقسام، وهي:

- ١- المكانة البروتوكولية للموظفين الحكوميين في العاصمة والأقاليم.
- ٢ - تنظيم شؤون الدولة والسلطنة.
- ٣ - الجرائم والعقوبات وإيرادات رجال الدولة.

لقد طبقت هذه النصوص القانونية كدستورٍ للدولة اعتبارًا من عهد السلطان محمد الفاتح، وقد أنارت هذه القوانين مفهوم القانون في الدولة العثمانية، كما تعتبر مصدر معلومات قيمٍ للغاية يوفر لنا معرفة الخصائص الملامح السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لتلك الحقبة، لقد تبنى السلطان الفاتح مفهومًا قانونيًا مرناً، وأراد توفير إمكانية إجراء تعديلات وقوانين جديدة حسب الحاجة، حيث قال:

”لقد نظمنا أحوال السلطنة لهذه الدرجة، وليعمل أبنائي الكرام الذين سيأتون من بعدي كذلك على إصلاح هذه القوانين وتعديلها“.



صورة عن الدستور العثماني

من الأمير محمد إلى السلطان الفاتح

ولد السلطان محمد الفاتح، سابع سلاطين الدولة العثمانية، بمدينة "أدرنة" عام (١٤٣٢م)، وترتيبه الرابع بين أبناء السلطان مراد الثاني، وأمه هي "هُما خاتون"، وقد أولى والده اهتمامًا خاصًا بتعليمه لما لاحظته لديه من ذكاءٍ حادٍ وحيويةٍ وصعوبةٍ في المراس، ودرس الأمير محمد في أولى سنوات حياته في قصر "أدرنة" على يد أفضل علماء عصره، وكان "ملا يجان" هو معلمه الأول، ثم أسندت مهمة تعليمه إلى "آق شمس الدين" الطبيب الذي سُمح له حتى بضرب الأمير إن لزم الأمر.

وعندما بلغ عمره أحد عشر عامًا، انتقل إلى مدينة "مانيسا" كأmir عليها برفقة مربيّه "قصاب زاده محمود" وأستاذته ومستشاريه، ثم أصبح في العام نفسه وريث عرش الدولة العثمانية بعد الوفاة المفاجئة لشقيقه الأكبر "علاء الدين علي جَلبي"، أصبح الأمير محمد سلطانًا عام (١٤٤٤م) بعد انسحاب والده من العرش، وهو لا يزال في الثانية عشر

من عمره، غير أن والده السلطان مراد الثاني عاد بعدها بعامين إلى منصبه، لينتقل الأمير محمد مجدداً إلى "مَانيَسَا". وانشغل الأمير خلال تلك الفترة حتى عام (١٤٥١م) بزيادة خبرته وصقل تجاربه وممارساته.

ويصادف أن الأمير تعرّف إلى الثقافتين الإغريقية واللاتينية في تلك الفترة، وقد جمع حوله عدداً من أنصار الفلسفة الإنسانية من الإيطاليين والمثقفين الجنوبيين والبندقيين والنابوليين، وحاول من ناحية أخرى أن يتعلّم اللغات اليونانية والإغريقية واللاتينية، وكان يقرأ كل ليلة جزءاً من تاريخ روما وأوروبا على يد معلّمه "كيرياكوس" (*Cyriacus*) الذي علمه اللاتينية والإيطالية، والذي يعتبر أحد مؤسسي علم الآثار الحديث، وبدأ الأمير محمد -منذ سنوات إمارته وحتى وفاته- يجمع حوله علماء الإنسانيات الغربيين والمثقفين البيزنطيين والعرب والإيرانيين والأتراك ويتواصل معهم باستمرارٍ.

تدهورت الحالة العلمية والثقافية في إسطنبول تدريجياً، كما هو الحال في شتّى مجالات الحياة، عقب الاجتياح اللاتيني عام (١٢٠٤م)، وقد دبت الحيوية سريعاً من جديد في المدينة بعد انتقالها إلى العثمانيين بفضل المبادرات الثقافية، وأراد السلطان محمد الفاتح تحويل إسطنبول إلى عاصمةٍ عالميّة يسودها العلم والثقافة والتسامح، ورغب في تأسيس إمبراطوريته بدءاً من إسطنبول.

زُينت المدينة في عهد السلطان محمد الفاتح بالآثار والأعمال العلمية والثقافية والدينية، وقد حوّل السلطان ثماني كنائس في مختلف أنحاء المدينة إلى مدارس بعد الفتح، وعيّن شخصيات علمية بارزة مثل

"مولانا طوسي" و"خواجه زاده" و"مولانا عبد الكريم" وغيرهم في منصب كبار المدرّسين في هذه المدارس، وقد كلف السلطان بإنشاء ثمانين مدارس كبيرة في كلِّ من الجهتين الشمالية والجنوبية لجامع الفاتح الذي يُعتبر أول جامع كبير يُبنى في إسطنبول، وأضيفت تسع عشرة غرفة لكلِّ قسم من أقسام مدارس "صحن ثمان" التي تعتبر أرفع مؤسّسة تعليمية أنشأها الفاتح عقب فتح إسطنبول؛ كما حُصّصت سبعون غرفة لدار الشفاء التي تعمل بشكلٍ تطبيقيّ، وقد أولى السلطان اهتماماً عن كثبٍ بالطلاب الدارسين في مدارس "صحن ثمان"، وحضر محاضراتهم بين الفينة والأخرى، وحصل على معلوماتٍ حول تعيينهم وترقيتهم، وكانت هذه المدارس تشتهر بكليات الطبِّ والحقوق والدراسات الدينيّة على وجه الخصوص؛ إذ كانت تعتبر من المراكز الثقافية الكبرى في تلك الحقبة، وترجع أسس جامعة إسطنبول اليوم لهذه المدارس، حيث يشار إلى عام (١٤٥٣م) على أنه عامُ تأسيس هذه الجامعة العريقة.

وإلى جانب هذه المدارس، أمر السلطان محمد الفاتح بتأسيس مدرستين حول جامعي آيا صوفيا وأبي أيوب الأنصاري، كما كلف وزراءه بإنشاء الجوامع والخانات والمدارس من أجل إنعاش إسطنبول وأنشأ كلُّ من محمود باشا وداود باشا ومصطفى باشا المدارس في مناطق المدينة المختلفة، وقد أولى السلطان اهتماماً بتنظيم نظام المدارس لعلمه بأن الشرط الأول لتأسيس إمبراطورية عالميّة هو تشكيل نظامٍ تعليميٍّ قويٍّ، كما نظّم السلطان شؤون المؤسسات التعليمية والدينية والقانونية، وكلف المختصّين بتعديل المناهج التعليمية في مدارس إسطنبول وأدّرنه وبورصا.

كانت هناك علومٌ مثل الفقه والكلام والتفسير تدرّس بالطرق التقليدية في المدارس العثمانية حتى عهد السلطان محمد الفاتح الذي اهتمت الدولة في عصره بشكل خاص بالعلوم الحديثة إلى جانب العلوم التقليدية، كما دعمت الدولة الأفكار الفلسفية والعلمية وشجعتها، ورعى السلطان جميع العلماء دون التفرقة بينهم على أساس الدين والعرق والمذهب، الأمر الذي ساهم في حدوث تطوّراتٍ في مجالات الحياة كافة بفضل هذه المناخ العلمي الحديث.

يقول المؤرّخ النمساوي "بول فيتيك" (Paul Wittek) " ما يلي :

"نحن مدينون للمعرفة الهندسية الرفيعة والموارد الاقتصادية لدى العثمانيين واللذان ساهمتا في حماية كنيسة آيا صوفيا المتميّزة والمحافظة عليها في مواجهة عوامل التدمير على مرّ القرون، كما أنّ العثمانيين امتلكوا حضارةً راقيةً تطوّرت في ظلّ العالم الإسلامي، وقد استطاعوا إحداث طفرة حضارية عقب فتح القسطنطينية، وفي سبيل تحقيق ذلك أمر السلطان محمد الفاتح بإنشاء جامع جديدٍ يضاها في تصميمه الهندسي آيا صوفيا، إضافة إلى بناء ثمانى مدارس ومستشفيات ومكتبة وكلية جديدة وجامعة تجذب العلماء من مختلف بقاع العالم الإسلامي حول هذا الجامع، وسيتولى خلفاؤه إعادة إعمار المدينة على مدار قرون لتشكّل إسطنبول المتميّزة مستقبل آسيا وأوروبا".

ويقول المؤرّخ الألماني "موردتمان" (Mordtmann):

"في حقّ السلطان محمد الفاتح "لقد أحدث نقطة تحوّلٍ فارقةً في التاريخ العالمي، وكان إنساناً جمع في شخصه ثقافة العالمين الشرقي الغربي".

وحاول السلطان جمع العلماء المتفردين من أصحاب الكلمة العليا في العلوم العقلية والنقلية في دولته رغبةً منه في التوليف بين الثقافتين الشرقية والغربية، وبإمكاننا تحليل العلاقات التي أنشأها السلطان في هذا الإطار بين علماء الشرق وفلاسفة الغرب من أجل تحليل رؤيته ونظراته للعالم وشخصيته المثقفة على نحوٍ أعمق:

كان زعيم بطيركية القسطنطينية "جناديوس سكهولاريوس (Gennadios Skholarios)" يدرّس محاضرات علمية للطلبة اليونانيين والإيطاليين في الأكاديمية التي أسسها في منزله قبيل فتح المدينة على يد العثمانيين، وكان يعارض بشدة فكرة الإمبراطور قسطنطين بالاتحاد مع الكنيسة الكاثوليكية، هذا فضلاً عن أنه عندما أعلن اتحاد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية عقب طقوس أجراها الكاردينال اللاتيني "أيسيدوروس" في كنيسة آيا صوفيا يوم الثاني عشر من ديسمبر/كانون الأول (١٤٥٢م)، قوبل ذلك بمعارضة شديدة من قبل "جناديوس"، وقد ازداد احترامه بين الشعب الأرثوذكسي إثر موقفه المعارض لـ"أيسيدوروس" ودخوله في جدالٍ معه، ووقع "جناديوس" أسيراً خلال فتح القسطنطينية وسبق إلى أدْرَنَه، لكن السلطان محمد الفاتح أمر بنقله إلى القسطنطينية مجدداً، ولأنه ليس مؤهلاً ليكون بطيركاً وفق تعاملات الكنيسة، فقد رُفعت درجته الروحانية، واختير مطراناً لكنيسة الحواريين التي تعتبر أعلى رتبةٍ روحيةٍ، ثم جرى تعيينه بطيركاً على رأس النصارى الأرثوذكس عام (١٤٥٤م)، وقد أظهر السلطان الفاتح بهذه الإجراءات انحيازه التام للأرثوذكس، وسعى لتعميق الخلافات بينهم وبين الكاثوليك بمرور الوقت، وقد استطاع العثمانيون -بفضل هذه السياسة- الحيلولة

دون اتحاد جميع النصارى واتفاقهم على الخروج في حملات صليبية جديدة، ونجحت الدولة العثمانية في تأسيس سلطة أكثر سهولة واستمراراً على الأرثوذكس في البلقان على وجه الخصوص.

ولقد قدّر السلطان محمد الفاتح الخبرة العلمية لدى جنادايوس الذي كان عالم دين صادقاً وصريحاً، حيث كانا يعقدان جلسات علمية فيما بينهما بين الحين والآخر، ولما طلب منه السلطان أن يؤلف كتاباً يشرح العقائد الأساسية للنصرانية، ألف جنادايوس كتاباً أطلق عليه اسم "رسالة في العقيدة" شرح فيه المعلومات الرئيسة في النصرانية، وقدمه للسلطان، كما أمر السلطان بعقد مناقشة حول العقيدة النصرانية في حضرته بين العلماء المسلمين والبطيريك "مكسيم مانويل"، وطلب من البطيريك تدوين هذه المناقشة.

ولم يستطع البابا بيوس (١٤٥٨-١٤٦٤م) ذو الأفق الضيق فهم الدراسات الثقافية والسياسية والحوارات التي أجراها السلطان محمد الفاتح مع الفلاسفة النصارى، وظنّ أن السلطان يميل للنصرانية، فأرسل له خطاباً طويلاً عام (١٤٦١م)، وجاء في الخطاب الذي حمل عنوان "*Epistola ad Mahometem*" المنشور في إيطاليا عام (١٤٦٩م) ما يلي:

"وبالرغم من ذلك، فهناك شيءٌ صغيرٌ وتافهٌ يمكن أن يحوّلك إلى أكبر وأقوى وأشهر إنسان في زمانك، وإذا سألت عن هذا الشيء؛ فليس من الصعوبة إيجاداه، ولا داعي إلى البحث عنه لفترةٍ طويلةٍ، فحفنةُ المياه التي سيكون بإمكانك التعميد بها موجودةٌ في كلّ مكانٍ في العالم، تحوّل إلى الطقوس النصرانية وآمن بالإنجيل، افعل ذلك كي لا يكون هناك أيّ حاكمٍ في العالم أقوى منك وأكثر عظمة، نعدك أن نعلنك إمبراطوراً على بلاد

الإغريق والشرق، وحينها سيكون لك الحق في امتلاك الأراضي التي استوليت عليها عنوةً، ولن تستطيع أن تنجح باتباعك الشريعة الإسلامية، وأما إذا اعتنقت الديانة النصرانية فستكون أعظم شخصية في عصرك“.

ويضمّ أرشيف الفاتيكان النسخة الأصلية من هذا الخطاب الذي لم يصل إلى يد السلطان قط لأسباب لا نعرفها، كما لم يصادف أحدًا أيّ ردٍّ سلبيٍّ أو إيجابيٍّ من السلطان على هذا الخطاب في أيّ أرشيفٍ حتى يومنا هذا.

وعندما علم البابا بيوس الثاني، الذي كان يحمل اسم "سلفيو بيتشولوميني (Silvio Piccolomini)" قبل أن يصير بابا، وكان من أبرز مؤيدي "الإنسانية (Humanism)"^(٢١) في القرن الخامس عشر، نبأ سقوط القسطنطينية بينما كان أمينًا مستشارًا في مدينة "جراتس" النمساوية، أعرب عن أفكاره على النحو التالي:

”إننا بصدد الوقوع في مواجهة مع العثمانيين، وكان الإيطاليون هم أصحاب العالم حتى هذه اللحظة؛ وأما العثمانيون فيضعون لبنات تأسيس دولتهم، لذلك فإنّ البندقية الآن تمرّ بأزمة خطيرة وتعيش آلامًا كبيرة، لأنها ربما تفقد حقها في المرور ليس من البحر الأسود فقط، بل كذلك من الأراضي السورية وجزيرة كريت وحتى البحر الأدرياتيكي“.

وقد أعلن المؤرّخ البيزنطي كريتوفولوس ولاءه للسلطان الفاتح عقب فتح القسطنطينية حيث عرف منه أنه قال لصديقه في تاريخ مبكّر

(٢١) "الإنسانية (Humanism)" هي مجموعة من وجهات النظر الفلسفية والأخلاقية التي تركز على قيمة وكفاءة الإنسان، سواء كان فردًا أو جماعة، وتفضّل عمومًا التفكير والاستدلالات العقلانية والتجريبية.

في عام (١٤٤٤م) أنه لن تتجرأ أيّ قوّة على مواجهة العثمانيين، وقد عينه السلطان عام (١٤٥٦م) والياً على جزيرة "إمروز"، وعقب تولّيه منصبه لعشر سنوات عاد كريتوفولوس إلى إسطنبول بعدما استولى البندقيون على الجزيرة عام (١٤٦٦م)، وأصبح المؤرخ الرسمي للسلطان محمد الفاتح، ويقول في كتابه الذي دوّن فيه إنجازات السلطان الفاتح فيما بين عامي (١٤٥١-١٤٦٧م) "إن السلطان الفاتح يُعتبر من أجدّ الفلاسفة ذكاءً"، ويشرح أنه أمر بترجمة كتاب "حياة المشاهير" لمؤلّفه "بلاوترك" من الإغريقية إلى التركية، وأنه أولى اهتمامًا خاصًا بحكايات حياة الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر.

لقد أسر الجغرافي والفيلسوف البيزنطي الكبير "جيورجيوس أميروتزس (*Georgios Amirutzes*)" عقب فتح القسطنطينية، غير أنه ما أن علّم أنه عالمٌ كبيرٌ حتى ضمّه السلطان إلى كادر مستشاريه، غير أن أبناء دينه الأوروبيين اتّهموه بالخيانة بسبب علاقته المقرّبة من السلطان، وكان "أميروتزس" أحد مستشاري السلطان في مجالات الرياضيات والفلسفة والجغرافيا، وقد ترجم -بناءً على طلب السلطان- كتاب "المجسطي (*Almagest*)" الذي ألّفه بطلميوس إلى اللغة العربية، وقد أسلم أحد ابنه وتسمّى باسم محمد، وترجم هذا الابن الإنجيل إلى اللغة العربية بأمرٍ من السلطان الفاتح، وقد دقّق السلطان خريطة العالم التي رسمها "بطلميوس"، وتصادف في مكتبة السلطان آنذاك الترجمة اللاتينية لجغرافية بطلميوس التي ترجمها "جاكوبس أنجلوس" إلى التركية، وكان قصر "طوبّ قايبي" قد تحوّل إلى ما يشبه الأكاديمية الجغرافية في تلك السنوات بسبب شغف السلطان بمعرفة العالم.

لقد لفت انتباه بعض الطباعين الإيطاليين الاهتمام الخاص الذي أولاه السلطان العثماني بكتب الجغرافيا والخرائط، وسافر الرسام الإيطالي "برلينجيري" إلى إسطنبول من أجل تقديم كتاب "Geographica" الذي ألفه بطليموس، وطبعه بعناية شديدة، إلا أنه لم يتمكن من اللقاء مع السلطان فاتح لأن السلطان توفي قبل وصوله فكان من نصيبه مقابلة بايزيد الحاكم الجديد، وخلال اللقاء استطاع الرسام الإيطالي أن يقنع السلطان بشراء الكتاب الذي أعده لوالده السلطان، كما أنه تمكن من بيع كتابه الآخر للأمير "جم" الذي كان محتجراً في أوربا آنذاك.

يتنسب "جيرجيوس تراييزونتيوس" إلى عائلة هاجرت من مدينة "طرابزون" إلى جزيرة "كريت"، ومن ثم استقرت في إيطاليا عام (١٤١٦م)، واعتنق المذهب الكاثوليكي عام (١٤٢٦م) وبادر إلى ترجمة مؤلفات أفلاطون وأرسطو وديموستيني، كما أنه كان عالماً كبيراً درّس عدداً من باباوات الفاتيكان، كان تراييزونتيوس يحمل أمل أن يستطيع الأتراك تحقيق توحيد جميع الأمم الإنسانية تحت قوة واحدة خلال تلك الحقبة التي قوي فيها تيار النزعة الإنسانية، وقد جاء إلى إسطنبول عام (١٤٦٥م) للقاء السلطان محمد الفاتح كممثل للبابا بول الثاني، لكنه لم يتمكن من لقاء السلطان، وكتب في طريق عودته مقالاً أطلق عليه اسم "حول عظمة السلطان"، وكان قد حُبس بقرار من اللجنة التي يتولّى رئاستها الكاردينال الطرابزوني "بساريون (Bessarion)" بسبب مقالاته حول السلطان الفاتح، إلا أنه طلب العفو والصفح من البابا، واستطاع أن يُنقذ نفسه من السجن بقوله إنه كتب هذا المديح للسلطان الفاتح لأنه يرى أن ذلك ضروري في مساعيهم لتغيير دين السلطان، وكان تراييزونتيوس يقول في إحدى كتاباته عقب مدح السلطان:

”أعتقد أن أحداً لم ولن يستطيع إدراك تلك الفرصة التي وهبها لكم الرب، ولقد توصلتُ إلى هذه النتيجة بعد أن منحكم الرب القسطنطينية... وقد أوكل الرب لك الحكم بهذا النصر، وذلك كي تجمع كل الشعوب تحت معتقدٍ وكنيسةٍ واحدةٍ ويرتفع قدرك كحاكمٍ للعالم بأسره“.

حصل الرسام الإيطالي "جنتيلي بليني (Gentile Bellini)" على دعوة من السلطان لزيارة إسطنبول، ف قضى عامي (١٤٧٩-١٤٨٠م) في إسطنبول، ورسم صورةً شخصيةً للسلطان محمد الفاتح وبعض الصور الأخرى، وتُعرض اليوم الصورة التي رسمها للسلطان الفاتح في المتحف الوطني بالعاصمة البريطانية لندن، ويكتب الإيطالي "أنجيلو (Angiolello)" إنه التقى "بليني" في القصر بإسطنبول، ومن المعروف أن الرسام والحرفي الإيطالي المنحدر من مدينة فيرونا في جمهورية البندقية "ماتيو ديباتسي" زار هو الآخر إسطنبول، لكن أحداً لم يصادف أي أثر له، ويعتقد أن السلطان جمع معلوماتٍ من هؤلاء الفنانين الذين دعاهم من إيطاليا لزيارة إسطنبول حول بلدانهم، ويُمكن اعتبار المغامرة التي عاشها "ماتيو ديباتسي (Matteo D'Patsi)" مثلاً نموذجياً لهذا الأمر، وكان جنود البابا قد أوقفوه على الحدود وفتشوه، وعندما وجدوا معه خطاباً مكتوباً للسلطان محمد الفاتح، أُلقي القبض عليه وحوكم بتهمة التجسس.

سجّل السلطان محمد الفاتح أبناء النبلاء البيزنطيين في مدرسة "أندرون" بالقصر عقب فتح إسطنبول، ومن ثم عيّن هؤلاء الأشخاص في المناصب المختلفة بالدولة في السنوات اللاحقة، وقد تولى محمد باشا ومسيح باشا منصب الصدر الأعظم، وأما خاصّ مراد باشا فقد تولّى منصب أمير أمراء الروملي، أي إن العلماء البيزنطيين والنخب السياسية

قد دُمجت في بُنية الثقافة العثمانية بعد الفتح، وُسِّم لهم بالمساهمة في الحياة الاجتماعية والسياسية في الدولة العثمانية، ويُعتبر هذا النهج مؤشراً بارزاً على بدء ترسُّخ رؤية الإمبراطورية لدى الدولة العثمانية.

لقد وضع السلطان الحكيم جميع العلماء تحت حمايته ورعايته دون أن يفرِّق بينهم على أساس العرق أو الأصل أو المعتقد، وقد ارتقت الدراسات العلمية والمستوى الثقافي في الدولة العلية العثمانية في القرن الخامس عشر بفضل الاهتمام الذي أولاه السلطان محمد الفاتح للعلم والفلسفة، إن هذه الطفرة العلمية وموجة التأليف والترجمة التي بدأت في عهد السلطان الفاتح قد آتت أكلها في الحقبة التالية لعصر السلطان، وخلال تلك الحقبة درس العثمانيون العلوم الحديثة في فروع شتى بجانب العلوم الإسلامية، وقد وصلت الخبرة العلمية الإسلامية الكلاسيكية إلى أعلى مستوياتها لا سيَّما في مجال علوم الرياضيات والفلك والجغرافيا والطب، وعلى سبيل المثال، أُلِّف ثلاثة وأربعون عالماً خلال تلك الفترة ثلاثة وستين كتاباً في الرياضيات.

لم يكتف السلطان محمد الفاتح بإعلان إسطنبول - التي كانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية قبل الفتح - عاصمةً لدولته، بل رغب في أن يجعلها مركزاً للعالم الإسلامي والعالم القديم الذي كان معروفاً آنذاك، ولتحقيق هذه الغاية دعا العلماء الذين توصل إليهم للقدوم إلى إسطنبول في مقابل عروض جذابة، ويعتبر انتقال الفلكي الكبير "علي قوشُجو (Kuşçu)" (ت ١٤٧٤م) من تبريز وتعيينه في منصب كبير مدرّسي مدرسة آيا صوفيا خيرَ مثالٍ على هذه الفكرة التي تبناها السلطان الفاتح إبَّان حياته.

وقد تربى "علي قوشجُو" -الذي لُقِّب بـ" قوشجُو زاده" لأن أباه عمل في قصر "أولوغ بك" وهو أحد أشهر سلاطين دولة تيمور- في مهمّة تربية الصقور، وتلقّى العلم من علماء القصر في تلك الحقبة مثل "قاضي زاده" و"جمشيدي كاشي (Cemşidi Kaşi)"، وعيّن مديراً على مرصد سمرقند بعد وفاة معلّمه "قاضي زاده"، وقد ألف أعمالاً نادرةً في مجالي الفلك والرياضيات، وأما أهمّ كتاب ألفه "علي قوشجُو" فكان شرح "الزيج" الذي كتبه إلى "أولوغ بك"، وقد أورد المؤلف في هذا الكتاب براهين النظريّات والمشاكل المكتوبة في مقدّمة الزيج أو الجداول السلطانية، وعقب مقتل "أولوغ بك" على يد ابنه عبد اللطيف عام (١٤٤٩م)، انتقل "علي قوشجُو" من سمرقند إلى تبريز عاصمة قبيلة "آق قيونلو"، وكان ضمن وفد الرسل الذي أرسله "أوزون حسن" إلى إسطنبول، ولاحظ السلطان محمد الفاتح إمكانيّات "علي قوشجُو"، فعرض عليه الاستقرار في إسطنبول، وبعد محاولة السلطان لإقناعه بإصرار، وافق "علي قوشجُو" على هذا العرض، وعاد إلى إسطنبول عقب إتمام مهمّته الدبلوماسية برفقة مائة شخص، وقد منحه السلطان ألف درهم كمصاريف سفر عن كلّ مكان نزل به خلال رحلته الطويلة إلى إسطنبول، وبعدما وصل عاصمة الدولة العثمانية، عيّن في منصب كبير المدرّسين في مدرسة آيا صوفيا براتب يوميّ بلغ مائتي درهم، كما منحته إدارة الدولة مهمّة تنظيم البرامج التعليمية في مدارس آيا صوفيا وضحن ثمان، وكانت المحاضرات التي يلقّيها في مدرسة آيا صوفيا تحظى باهتمام كبيرٍ ويحضرها عددٌ كبيرٌ من طلاب العلم.



المفتي

حققت الدولة العثمانية تقدماً ملحوظاً في المجال العلمي على أيدي الطلاب الذين تلقوا العلم على يد "علي قوشجُو" الرياضي والفلكي العظيم في إسطنبول، ويُعتبر "علي قوشجُو"، والرياضي والفلكي الكبير

الآخر "فتح الله الشرواني"، من آخر النجوم التي تالأت في سماء نهضة الدولة التيمورية، حيث ألف "علي قوشجو" أعمالاً متميزة ورَبَّى مئات الطلاب، وكان الشرواني، الذي درس على يد قاضي زاده في سمرقند، قد انتقل إلى الأناضول في عهد السلطان مراد الثاني، وأدخل إلى نظام التعليم العثماني، ورَبَّى العديد من الطلبة بعدما عمل في حقل التدريس في مدارس إسطنبول لسنواتٍ طويلة، وتوفي عام (١٤٨٦م)، وكانت هاتان الشخصيتان من رواد الفلك والرياضيات في الدولة العثمانية بفضل نقلهم للخبرة العلمية من الشرق إلى الغرب، أي إلى الأراضي العثمانية، كما ساهما في إيجاد مبادرة جديدة وإنشاء رؤية ثقافية حديثة من خلال المزج بين الخبرة العلمية لطرفي العالم الإسلامي الشرقي والغربي.

يعتبر "سنان باشا" الذي توفي عام (١٤٨٦م) من أبرز علماء إسطنبول في عهد السلطان محمد الفاتح، وقد درس على يد أفضل علماء عصره في مرحلة شبابه مثل "ملا خُسْرُو" و"ملا جُوراني" و"خواجه زاده" و"ملا يَجَانَه"، وتفوق في حياته بفضل ذكائه ومهاراته، وعُيِّن أولاً عميداً لمدرسة صحن ثمان، ثم رقي إلى منصب معلم السلطان الخاص، وألف أعمالاً في مجالات الرياضيات والفلك والفلسفة والكلام والفقه والتفسير باللغة العربية، وأُسند إليه منصب وزاري عام (١٤٧١م)، ثم عُيِّن صدراً أعظم، مما جعل الناس يلقبونه بـ"الوزير المعلم"، ويروى أن سنان باشا لم يستسغ حضور دروس الرياضيات التي كان يعقدها "علي قوشجو" عندما انتقل إلى إسطنبول لتكبره وغروره، ولذلك كان يُرسل تلميذه "ملا لطفي الطوقاتي" لحضور دروس "علي قوشجو"، ثم يتلقى العلم عنه، وعندما أصدر السلطان قراراً باعتقال سنان باشا بسبب وقوعه في خطأٍ

ما، قام علماء ذلك العصر بتهديد السلطان بحرق كتبهم العلمية إذا لم يتم الإفراج عنه، وعلى إثر ذلك اضطرَّ السلطان أن يفرج عنه، وعينه قاضيًا على "سُورِي حِصَارًا"، وتُظهر لنا هذه الواقعة المدهشة كيف أن علماء عهد السلطان محمد الفاتح كانوا يمتلكون شخصيةً يستطيعون من خلالها الوقوف في وجه السلطان، وكيف أنهم كانوا يتمتعون باعتبار كبيرٍ عند السلطان.

ولقد تولَّى العالم الكبير المنحدر من مدينة بورصا "خواجه زاده" الذي توفِّي عام (١٤٨٨م) على مدار حياته مناصب رفيعةً جدًا مثل التدريس والقضاء العسكري وتعليم السلطان وتولَّى منصب القاضي في إسطنبول، وكان مولعًا بالدراسات والأبحاث العلمية لدرجة جعلته يستقيل من جميع مناصبه الرسمية التي كانت تحول دون تفرُّغه لأبحاثه العلمية، قد اشتهر "خواجه زاده" بتفوقه في مجال التدريس إضافةً إلى اعتلائه المناصب الرفيعة في الدولة، وكان معروفًا في إيران وآسيا الوسطى، وقد أرسل السلطان التيموري "حسين بايقرا" عالمًا خراسانيًا مع المبعوث الذي أوفده لتهنئة جلوس السلطان بايزيد الثاني على العرش، وذلك خصيصًا لتلقي العلم عن "خواجه زاده"، وقد شارك في مناقشاتٍ علميةٍ مع معظم علماء عصره في القصر في حضرة السلطان، وانتصر عليهم في أغلبها، وكان "مُلا زَيْرُك" و"علي فُوشُجُو" من بين هؤلاء العلماء، وكان السلطان محمد الفاتح مغرمًا تمامًا بالميتافيزيقا وتاريخ الأديان والمذاهب، وقد كلَّف "خواجه زاده" بمناقشة موضوعاتٍ حول التوحيد في حضرته، واستمرت المناقشة بين "خواجه زاده" و"مُلا زيرك" لسبعة أيام، إلى أن انتصر خواجه زاده بعد منافسةٍ شديدةٍ حَكَمَ فيها "مُلا خسرو"،

ويرى المؤرخ التركي المعاصر "عدنان آديواز" أن خواجه زاده يذكرنا بخاصيته تلك بنموذج "الدكاترة العالميين (Doctores Universales)" في أوروبا، وذات مرة وجه السلطان محمد الفاتح سؤالاً إلى أستاذه "خواجه زاده" الذي تلقى عنه دروس القانون حيث قال:

"ألا يخيفك الدخول في مناقشةٍ معي؟"

فأجابه "خواجه زاده":

"نعم، أخاف الدخول في مناقشةٍ معك بصفتي واحد من رعيك، ولكن لا أخاف مناقشتك بصفتي معلّمك، فأنت سلطاني خارج القصر، أما هنا فإنك تلميذي وأنا أستاذك".

كانت شخصية السلطان الفاتح بعيدةً عن التعصّب ومنفتحةً وتمتلك أفكاراً حرّة، وكان يدعو العلماء إلى القصر كلّما سنحت له الفرصة، ويكلّفهم بإجراء المناقشات العلميّة وكتابة الرسائل العلميّة من خلال تكليفهم بمناقشة المسائل المعضلة، ومن ثم يقوم بتدقيقها، وكان يقدر وجهات نظر علماء عظماء أمثال "خواجه زاده" و"ملا جوراني" و"آق شمس الدين" و"علي فوشجُو"، وكان يكلّفهم بإجراء مناقشاتٍ علميّة عميقة في الفلسفة والدين في حضرته.

كان العالم الخراساني الكبير "ملا جامي" من أبرز الشخصيات التي سعى السلطان الفاتح لدعوتها إلى إسطنبول، وما إن علم السلطان بنيا ذهاب هذا العالم الكبير إلى الحجّ، حتى أصدر أمره باستضافته على أحسن وأكمل وجه في المدن التابعة له، ودعاه للقدوم إلى إسطنبول عبر مبعوثٍ أرسله إليه بينما كان في دمشق، وفي مقابل ذلك؛ مدح "ملا جامي" السلطان الفاتح في كتابه الذي حمل اسم "الرسالة الإرشادية" من

باب شكر السلطان، وقد لبى مُلا جامي دعوة السلطان الثانية ووافق على الذهاب إلى إسطنبول، وخرج برفقة حشدٍ كبيرٍ من الناس، لكنّه عندما وصل إلى مدينة "قونيا" وصله نبأ وفاة السلطان، فتأثر بهذا الخبر كثيراً وعاد إلى بلاده.

لقد شهد عصر السلطان محمد الفاتح ظهورَ حكماء بارزين في مجال الطبّ، ما أسهم في تحقيق تطوُّرٍ كبيرٍ في هذا المجال بفضل هؤلاء العلماء، وكان "شرف الدين صابونجو أوغلو" الذي توفّي عام (١٤٦٩م) من أهمّ الأطباء في تاريخ الطبّ العثمانيّ، وكان قد حقّق شهرته الكبيرة في مجال الجراحة، كما ألّف أعمالاً مهمّة في مجال الطبّ، وترجم كتاب العالم الأندلسي الكبير "الزهاوي" (١٢) "كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف" إلى اللغة التركية بعنوان "الجراحيات الخائنة"، ويعتبر هذا الكتاب -الذي شرح فيه الأدوات المستخدمة في الجراحة وتقنياتها معبراً عنها بالرسوم- واحداً من الكتب المهمّة في مجال التعليم الجراحي، وقد ألّف كتاباً حمل اسم "مُجَرَّبُ نَامَه (Mücerrebname)" عام (١٤٦٨م) وأضاف إليه جميع خبراته وتجاربه، شرح فيه طرق العلاج العمليّ، ويُعتبر "صابونجو أوغلو" من رواد الصيدلة التجريبيّة، حيث كان يخبّر الأدوية التي يكتشفها والخلطات التي يجهّزها على الحيوانات من خلال تجاربٍ عجيبيّةٍ، وعلى سبيل المثال، جعل ثعباناً يعضّ ديكاً، ثم أعطى للدّيك تريباقاً أبقاها على قيد الحياة.

(٢٢) ولد الزهاوي في مدينة الزهراء، وترجع أصوله إلى الأنصار، عاش الزهاوي في قرطبة، حيث درس وعلمّ ومارس الطبّ والجراحة، أما أول من كتب سيرته الذاتية فهو الحميدي في كتابه "جذوة المقتبس في ذكر علماء الأندلس"، الذي كتبه بعد ستين عاماً من وفاة الزهاوي حيث قال عنه أنه: "من أهل الفضل والدين والعلم"، ووصفه "غوستاف لوبون" بأنه: "أشهر جراحي العرب، حيثُ وصف عملية سحق الحصاة في المثانة على الخصوص، فعدّت من اختراعات العصر الحاضر على غير حقّ"، وقد توفّي الزهاوي عام ٤٢٧هـ.

كان "الثوني زاده" من أشهر خبراء أمراض المسالك البولية في زمانه، وتسترعي انتباهنا الأفكار الموجودة في الكتاب "مائدة الحياة" الذي ألفه آق شمس الدين، معلّم السلطان الفاتح، حيث تناول فيه مسألتي "الميكروب والعدوى"، وإذا أردنا أن نذكر أسماء بعض الأطباء المشهورين في تلك الحقبة فنجد في المقدّمة: "حكيم عرب" و"خواجه عطاء الله" و"حكيم لاري" و"يعقوب باشا".

هاجر يعقوب باشا، الإيطاليّ ذو الأصل اليهوديّ، إلى الدولة العثمانية بعد ما نفى البابا نيكولا الخامس العرب واليهود المقيمين في إيطاليا وألغى جميع امتيازاتهم المهنية، فاعتنق الإسلام، ثم ترقّى في مجالات الطبّ حتى وصل إلى مرتبة كبير الحكماء، كما تولّى مهمّة الرعاية الطّبيّة الخاصّة للسلطان الفاتح، وهو الطبيب الذي أعدمه الإنكشاريون وقطّعوه إربًا إربًا بعد موت السلطان الفاتح، حيث حمّله مسؤولية وفاته.

أمر السلطان محمد الفاتح بملء مكتبته في قصر طوب قابي بالكتب المؤلفة باللغات التركية والعربية والفارسية واليونانية واللاتينية، ولا تزال هذه الكتب محفوظة في متحف القصر إلى يومنا هذا، ومعلوم أن السلطان الفاتح أكسب مكتبته الشخصية ومكتبات آيا صوفيا ومدارس صحن ثمان نحو ثمانمائة كتاب، وقد أجرى البروفيسور الألماني "أدولف ديسمان (Adolf Deismann)"، عضو هيئة التدريس بجامعة "برلين"، دراسةً حول مكتبة السلطان الفاتح كشفت أن المكتبة ضمّت خمسمائة وخمسة وثمانين كتابًا سوى الكتب الدينية، هذا فضلًا عن بيع مائة وخمسة وثمانين مخطوطة إغريقية من مكتبة القصر عام (١٦٨٥م).

كان السلطان محمد الفاتح يكتب الشعر باسم مستعار هو "عَوْنِي"، وهو أول السلاطين العثمانيين الذين ألفوا ديواناً شعرياً، وقد زادت قيمة الأدب والشعر في عهده، كما لم يبخل بمد يد العون والرعاية للأنشطة العلمية والثقافية، وحظّر جميع الأوضاع التي من شأنها الإضرار بالطبقة الثقافية، وفيما يلي نسرّد واقعةً رواها المؤرخ هامر كمثال جميل على هذا الأمر:

”تحدّث السلطان محمد الفاتح يوماً مع مُلا ينحدر من شبه جزيرة القرم عن أن القرم ولايةٌ عامرةٌ، وأنها أفرزت العديد من العلماء والفضلاء، وأنهم منشغلون دائماً بأعمال التأليف، لكن المُلا ردّ عليه بقوله إن هذه الأوضاع كانت سائدة في الماضي، أما اليوم فإنّ وزير جلالتكم الأخير عامل العلماء معاملةً سيئةً وحول ولايات القرم - التي كانت كالجنة - إلى صحراء جرداء، وقد شرح السلطان هذه الواقعة للصدر الأعظم محمود باشا، ونبّهه مجدداً بشأن ضرورة معاملة أهل العلم والعرفان بالحسنى والرفق“.

كان السلطان محمد الفاتح يمزح مع الحكماء والدرائش طالما كانوا يحترمونه ولا يتجرّؤون عليه، وكان يقابل تصرّفاتهم العجيبة بتسامح، وكان أحد الدراويش قد تعرّف على السلطان في أحد الأيام التي كان يتجول فيها بلباس التخفيّ، فدنا منه وقال:

”لقد خلق الله ﷻ مائةً وأربعةً وعشرين ألف رسول فليعطني السلطان درهماً على حبّ كلّ واحدٍ من هؤلاء“.

فتبسّم السلطان مماًزحاً وقال:

”حسناً، قل لي أسماء هؤلاء الرسل وأنا أعطيك ما تشاء من دراهم!“.

ومن أين سيعرف الدرويش هذا الكم من أسماء الرسل؟! ولم يستطع إلا أن يقول خمسة أو عشرة أسماء منهم، وبهذه الطريقة نجا السلطان من أن يدفع لهذا الدرويش كثيرًا من المال.

لقد كان رجال الدولة في القصر السلطاني يقفون بين يدي السلطان في وقار تام، بينما كان المجال مفتوحًا أمام العلماء يتحدثون ويتناقشون الأمور والمسائل والمستجدات مع السلطان بكل حميمية وود.

وبطبيعة الحالة فقد كانت هذه المعاملة الرفيعة والتميّزة التي كان يعامل بها السلطان العلماء دافعًا وحافزًا لرجال الدولة كي يبذلوا اهتمامًا أكبر بالعلماء ويرعونهم ويدعمون أنشطتهم العلمية.

كان السلطان الفاتح يستمتع بارتداء اللباس العلمي حين يكون في عاصمة دولته، باستثناء أوقات الخروج إلى الحملات، وكان يتجول مرتديًا عمامة من الشاش الأبيض الرقيق المجعد العريض حيث يلفه على قلنسوة قطيئة مستدقة الطرف.

لقد كان السلطان محمد الفاتح متدينًا ومتسامحًا بعيدًا عن التعصب ومنفتحًا، ولم يتوقف عن الجهاد في سبيل الله طيلة حياته، ويقول المؤرخ "كاريتو" مؤلف كتاب "الأترك في البحر الأبيض المتوسط" -الذي حلل فيه التاريخ التركي العثماني تحليلًا جيّدًا- ما يلي:

”كان السلطان محمد الفاتح مسلمًا حقيقياً بالرغم من ولعه

بالثقافة الغربية“.

وكان السلطان ينظم الشعر بعباراتٍ منفتحةٍ للغاية مقارنةً بالعصر الذي كان يعيش فيه، حيث كان يقول:

نيتي هي امتثال جهاد في سبيل الله

وحماستي هي حماسة الدين الإسلامي فحسب.

وترشدنا هذه الكلمات إلى وجهة نظر السلطان حول الدنيا، وكان السلطان يولي اهتمامًا كبيرًا لتطبيق أوامر الإسلام ونواهيها، إلى جانب الجهاد في سبيل الله، ونورد نصَّ قرارِ سلطانيّ (فرمان) أرسله إلى ولايات الروم من أجل رعاية وتذكير الرعيّة بالصلاة التي هي عماد الدين، حيث يقول:

”ندعو الله أن ييسّر لنا تطبيق أوامره، وما أريد أن أوضحه في هذا فرمان هو: ما وصلني أن السكّان المسلمين المقيمين في المدن والقرى والنواحي في ديار الروم يتهاونون في أداء أوامر الدين الإسلاميّ وأتباع السنّة النبويّة ولا ينفادون لأوامر ونواهي القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، ووصلني أنهم وضعوا آية ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (سورة البقرة: ٤٣/٢) وراء ظهورهم، ولا يتبعون الحديث الشريف "الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِّينِ، مَنْ أَقَامَهَا أَقَامَ الدِّينَ، وَمَنْ هَدَمَهَا هَدَمَ الدِّينَ" (٣٣) وأنهم اتّبعوا طريق الضلال والطغيان، وحولوا المساجد والجوامع إلى خرابية، وعمروا أماكن الفسق والفجور، وإذا كانت هذه الأنباء التي وصلتني صحيحةً، فإني سأعين رجلاً من رجالي ليقوم بمهمّة ومسؤوليّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأصدرت أوامري بتحديد ومعرفة تاركي الصلاة لمعاقتهم، ذلك أن الإسلام شرع لنا ضرب تارك الصلاة وتغريمه غرامةً ماليّةً، ولينبّه الشعب بأهميّة أداء الصلاة، وليشهر بتاركها بين عامّة الناس، ولن يمانع أو يجادل أحد -مهما كان- في تنفيذ هذه المعلومات،

وعلى جميع الأمراء والولاة والقضاة ومسؤولي الأمن ومن تحت
إمرتهم أن يتعاونوا مع الشخص الذي أرسلته إليهم، ولن يُسَمَح
أبداً بالتواني عن أداء أوامر الإسلام الحنيف ونواهيه، بحيث
ستتملئ المساجد وستعمر المدارس وسيقوى الدين الإسلامي
بإذن الله وبهذه الطريقة سيعيش المسلمون في بلهنية من العيش
وطمأنينة وسعادة، ويدعوا لاستمرار دولة السلطان وزيادة قوتها.
ولتعرفوا هذا جيّداً، ولتعتمدوا على توقيعي هذا“.

ماذا قالوا عن السلطان محمد الفاتح

استقرَّ "إيسيدوروس (*Isidoros*)" في إيطاليا عام (١٤٣٩م) بعد أن تولّى منصبَ كبير رهبان "دير العزيز ديميتريس" في القسطنطينية، ثم عاد إليها عام (١٤٥٢م) بصفته كاردينالاً مكلفاً من قبل الفاتيكان، حيث أدار طقوس دينية كاثوليكية في كنيسة آيا صوفيا وأعلن فيها اتحاد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، وكان إيسيدوروس متواجداً في القسطنطينية أثناء حصارها من قبل العثمانيين، وأسندت إليه مهمة الدفاع عن المنطقة المحيطة بدير العزيز ديميتريوس، غير أنه أصيب بسهم في رأسه وسقط أسيراً في أيدي الأتراك، ولكنه استطاع أن ينجو بنفسه من الأسر بعدما دفع الفدية ونجح في تضليل الجنود الأتراك عن هويته في الوقت الذي كان فيه مطلوباً لدى الجيش العثماني، ثم وصل إلى البندقية على متن سفينة تركية مروراً بمدينتي "فوتشا" و"كانديا" و"جزيرة خيوس"، وقد عايش إيسيدوروس حصار القسطنطينية بكل تفاصيله واكتسب معلومات حول السلطان محمد الفاتح، حيث قال في حقه:

"يقرأ السلطان حياة الإسكندر كل يوم من كتبٍ مختلفة، وهو يرغب في أن يحكم العالم بأسره أكثر من الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر".

وحذّر بابا الفاتيكان بقوله:

”يا أيها الأب المقدس! إن السلطان العثماني يهدّد النصرانية
أجمع، ومن المتوقع أن يستغلّ قوّته خلال فترة وجيزة ليسيّط
نفوذه بقوّة السلاح على مدينتك روما“.

وكان رجل القانون الإيطالي المنحدر من مدينة "بادوفا" "دوتي
(Dotti)" قد نُفِيَ إلى جزيرة "كريت" لمشاركته في واقعة اغتيال عام
(١٤٣٨م)، وكان هذا الرجل متواجداً في القسطنطينية إبان فتحها، وقد
توصّل "دوتي" -بعد أن استمع إلى الروم الذين قدموا إلى جزيرة "كريت"
عقب الفتح- إلى قناعةٍ وَقَرَّتْ في أعماقه فعَبَّرَ عنها قائلاً:

”إن هذا السلطان المدهش، الذي يُعتبر بمثابة الإسكندر
الثاني، قد جمع في شخصه قوّةً كبيرةً جداً بإرادةٍ لا مثيل لها“.

وأما "ميشيل دوكاس (Michael Doukas)"، الذي أرسل إلى السلطان
الفاتح كرسول عام (١٤٥٥م) وسنحت له فرصة الحديث باستفاضةٍ مع
جنود الإنكشارية بفضل إتقانه اللغة التركية، فيكتب في كتابه الذي أورد
به معلوماتٍ قيّمةً حول العلاقات العثمانية البيزنطية بعد عام (١٣٤١م):

”كان السلطان محمد الفاتح يفكر ليل نهار وفي جميع
أحواله كيف سيفتح القسطنطينية وما هي الأسلحة والمعدّات التي
سيستخدمها لتحقيق هذه الغاية..“

ويقول في موضع آخر:

”لقد فقد البيزنطيون مدينة القسطنطينية واستولى عليها
العثمانيون كعقابٍ لهم من قبل الإله“.

فيما يعتبر "بينفوجلينتي" (*Benvoglienti*) الصديق المقرب للبابا بيوس الثاني، وسفير "سينا"^(٢٤) لدى البندقية، وأحد المؤيدين بشدة لشن هجمات صليبية جديدة ضد العثمانيين، يقول:

"إن السلطان محمد أقوى من جميع الملوك الذين أرادوا أن يحكموا العالم مثل الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر".

وأما المؤرخ الشهير "سيكوندينوس" (*Sekoundinos*) الذي سقط برفقة عائلته أسيراً في أيدي العثمانيين لمدة ثلاثة عشر شهراً عند فتح مدينة "سالونيك" عام (١٤٣٠م)، والذي عمل كمرجم في جزيرة "وابية"، ثم في مدينة فلورنسا، فقد وصف السلطان محمد الفاتح كالتالي:

"يملك السلطان محمد ذكاءً حاداً وعميقاً، وقد أظهر كيف أن ثقافته حول شؤون الإدارة والقصر كانت عميقة للغاية عقب فترة وحيزة من توليه السلطنة خلفاً لوالده، حيث ألغى كل شيء غير ضروريٍ وعديم الفائدة لم يولي اهتماماً بالصيد والطيور والرقص والغناء والولائم، ومن ناحيةٍ أخرى؛ فلم يكن كسولاً قط، وإنما هو منشغلٌ ويتحرك دائماً، يفكر ويطبّق ما يقرره بدقةٍ لاتصدق، لا تمنعه الظروف المناخية السيئة من تحقيق ما يرنو إليه، ولا يتأثر بالبرد والجوع والعطش، وهو يهتم بالأدب والفلسفة في نفس الوقت الذي يهتم فيه بإدارة الدولة، وبلتفُّ حوله -في ساعاتٍ محدّدة- العديد من العلماء والفلاسفة، فيتحدّث معهم بصدقٍ وودٍّ، ويستقرئ تحت إشرافهم التاريخ القديم، ولا يهتم فقط بتاريخ إسبرطة أو أثينا، بل يهتم كذلك بتاريخ روما وقرطاج، كما

(٢٤) سينا -باللغة الإيطالية (Siena) - مدينةٌ بوسط إيطاليا في إقليم توسكانا، وهي عاصمة مقاطعة سينا، تشتهر عالمياً بموروثها الفني وصناعة الأثاث، وقد عُدت المدينة ضمن الموروث الأنساني من اليونسكو.

يعجب كثيرًا بالاطلاع على إنجازات الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر“.

ولقد اعتبر المؤرخ "باينجر" أن ما كتبه سيكوندينوس يُعدّ بمثابة أول تجربة أوروبية لتعريف جذر الأتراك وتاريخ العثمانيين.

ويصوّر "زورزو دولفين (Zorzo Dolfin)" الذي كان يبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا إبان فتح القسطنطينية، السلطان الفاتح بالكلمات التالية:

”قليل الضحك، كثير الكرم والسخاء، لا يفتأ عقله وذكاؤه عن العمل، يتحمّل جسده البرد والحر والجوع والعطش، عنيد في تحقيق مشروعاته ومقدّم غير عاديّ وجريء جدًّا، وهو كالإسكندر الأكبر لا يشبع من الشرف والمجد، ويتكلّم بشكلٍ قاطع دون أن يخجل من أحدٍ، وقد منع نفسه عن المَنع والمرح، وهو يتحدّث التركية واليونانية والصربية بطلاقة، ولديه طموحاتٍ جمّة في شتّى المجالات، ويخصّص وقتًا يوميًا لقراءة الكتب ويطالع تواريخ الإمبراطورية الرومانية ولاريس وهيرودوت وتيتوس ليفيوس وكوينتي كورس والفاتيكان وملوك ألمانيا وفرنسا ولومبارديا، ويعرف جغرافيا إيطاليا بجميع تفاصيلها، وكذلك يعرف الحكومات الأوروبية، ولا يهمل اصطحاب خريطة كبيرة لأوروبا أينما ذهب، وكان يرغب دائمًا أن يكون مسيطرًا على زمام الدولة، وهو ماهرٌ فيما يتعلّق بتوفيق شؤون دولته والتأقلم حسب الظروف المختلفة في سائر البلدان الأخرى“.

ويصف الإيطالي "لانجوستو (Langusto)"، الذي عاصر عهد السلطان

محمد الفاتح، السلطان بالعبارات التالية:

”كان السلطان محمد الفاتح دقيق القسّمات، طويل القامة، يتصرف ببُئيل، طيّب القلب، تشعر وأنت أمامه بالخوف أكثر من الاحترام، نادراً ما يضحك، حذر، شغوفٌ بالعلم والتعلم لأقصى الحدود، عنيدٌ في تنفيذ أهدافه، واثقٌ في نفسه دائماً، بارعٌ في استخدام الأسلحة، يسعى لتحقيق شهرةٍ لا تقلّ عن تلك التي حقّقها الإسكندر الأكبر، يقرأ تاريخ روما كلّ يومٍ على يد ”كرياكو“ أو شخصٍ إيطالي آخر ولا يوجد شيءٌ يعجبه أكثر من فنون القتال، وهو باحثٌ ذكيٌّ يريد تعلّم كلّ شيءٍ، ليس لديه ميلٌ للفجور أو الفسوق، ويتحكّم في نفسه جيّداً، يكتفي بالقليل، وليس لديه ميلٌ للشهوة، ويتحمّل جميع الصعاب، وتراوده دائماً فكرة تأسيس إمبراطوريةٍ وسلطنةٍ واحدةٍ في العالم كله، ولديه قناعةٌ بأنه ليس هناك مكانٌ مناسبٌ أكثر من إسطنبول لتأسيس هذا الاتّحاد العالمي“.

وأما ”سيومرن (Soemmer)“، الذي استغلّ منصبه الحساس داخل القصر الباباوي للحصول على معلوماتٍ مهمّةٍ من وثائق وأشخاصٍ رفيعي المستوى حول فتح إسطنبول والعثمانيين والسلطان الفاتح، فيقول إن السلطان ”سيسستولي على روما أيضاً وسيستأصل شأفة النصرانية“، ويصرخ ”كويريني (Quirini)“ بقوله:

”إن الشعوب النصرانية على حافة خطرٍ عظيم“.

فيما يقول المؤرخ العثماني ”نشري“ ما يلي:

”يُروى أن السلطان محمد الفاتح كان كريماً وعادلاً وشجاعاً وعالمًا ومتديّناً، وكان كلّما صادف شخصاً من أصحاب الكفاءة كان يستقدمه إلى إسطنبول ويخصّص له راتباً شهرياً، كما كان يستقدم أيّ شخصٍ ماهرٍ في أيّ فنٍّ من الفنون والأدب ويخصّص

له دخلاً، لم يكن أحدٌ يأتي إلى بابه ويُردّ خائباً، وإذا خرج إلى التنزه أو التجول يتصدق على الفقراء كلما رآهم، ولم يكن يوجد أيّ فقيرٍ في إسطنبول لم يحصل على صدقةٍ منه، وكان متواضعاً بعيداً عن التكبر، وإن كان في أعلى مراتب العظمة ورأى درويشاً يتواضع له على الفور، وكان العلماء والصالحون والشعراء والفقراء والكلّ يعيشون مرفهين في عهده وذلك لوفرة الأمن والأمان، لدرجة أنه إذا سرق أحدٌ لم يكن يُترك دون عقوبة، وكان السرقة والأعمال المنافية للأخلاق وقطع الطرق قد أُلغيت من أراضي الدولة العثمانية، وكانت السيدة تستطيع أن تسير بعريّة محمّلة بالذهب لمدة يومين دون أن يعترضها أو يسرقها أحدٌ.

ويشدّد الأستاذ "صلاح الدين أفندي" على النبيل والمجد اللذين كانت تتمتع بهما شخصية السلطان محمد الفاتح، فيقول:

”أخلاقه الحميدة لا نهاية لها ومواقفه الكريمة لا حصر لها، كما كانت تصرفاته الجميلة كثيرة جداً كجوده الجَمِّ، وكان مفهوم العدل لديه يتلخّص في فكرة أنك إذا عرضت عليه ملك سيدنا سليمان مقابل إيذاء نملةٍ أعرض عن ذلك وبادر بالرفض، ولم يكن يريد أن يسوء حظّه بسبب آهات المظلومين، وكان كريماً لدرجة أن القلم الذي يكتب أفعال الخير التي يفعلها يجفّ قبل أن ينجز مهمّته، وكان شجاعاً لدرجة أن بهرام يملّ من اسمه، ويخجل إسفنديار من حكايته، وكانت أيّ منطقةٍ يتوجّه إليها تسعد بأنباء وبشارات النصر والتأييد“.

وفي الختام...

لقد فتح السلطان محمد الفاتح إسطنبول وهو في الحادي والعشرين من عمره، وبذلك يكون قد حقق حلمًا راود العديد من الحكّام والسلاطين قبله لمئات السنين، وإذا نظرنا إليه من هذا المنظور؛ نجد أن السلطان الفاتح يُعتبر شخصيّةً استثنائيّةً يفخر بها التاريخ التركيّ الإسلاميّ، وكان السلطان صاحب إرادةٍ وعزيمةٍ قويةٍ، رزينًا متزنًا، يطبّق قراراته بسرعةٍ متناهيةٍ، حازمًا في إدارة الدولة، ناجحًا في الحفاظ على هدوء أعصابه ورباطة جأشه، عالمًا، يُتقن عددًا من اللغات، علاوةً على أنه أديبٌ وشاعر، وقد عقد العديد من المؤرّخين مقارناتٍ بينه وبين عددٍ من الأباطرة والحكّام العظماء أمثال الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر و نابوليون بونابارت وغيرهم، وبالتأكيد كانت هذه الشخصيات التاريخية الكبيرة تتمتع بالعديد من الميزات المهمة، لكنّ البونّ شاسعٌ بينهم وبين ما يتمتّع به السلطان الفاتح من مهارات شتى ومواهب متعدّدة، فقد كان من أبرز الشخصيات إثارةً على مرّ العصور وكرّ الدهور حيث كان محاربًا مغورًا في جبهات القتال، وصاحب تكتيكاتٍ حربيّةٍ مآكرةٍ، ومثقفًا كبيرًا في شتى المجالات والعلوم، ورومانسيًا مرهف

الحسّ عندما يمسك القلم، ومقاتلاً لا يعرف التعب أو الإرهاق في الغزو والحروب، ورجلاً شرفياً غير معقّد في مواجهة الغرب، وصاحب عقيدة متينة راسخة وإيمانٍ قويٍّ خالٍ من التعصّب والتطرّف.

كانت الشجاعة والبطولة جزءاً مهماً في شخصيّة هذا السلطان الاستثنائي، وقد واجه السلطان في العديد من المرّات الكثير من المخاطر والمهالك وسار بجواده -متحدّياً الموت- نحو صفوف العدو دون خوفٍ أو وجلٍ من أجل تحقيق الخطط التي كان يفكّر بها والأهداف التي كان يرنو إليها، لقد كان يتمتّع بالعديد من الفضائل والشمائل كالشجاعة والإرادة القويّة والعزيمة الراسخة، حتى إنه قد سار بجواده نحو صفوف العدو أثناء حصار "بلجراد" وحارب بنفسه بعد حدوثِ فوضىٍ مؤقتة بين صفوف جنوده الذين سيطرت عليهم حالة من الانقسام، واستطاع قتل ثلاثة جنودٍ صربيين، وأصيب في جبهته وساقه، حيث ظلّ جرحه الذي أصيب به في جبهته طيلة حياته يلازمه كذكرى من معركة بلجراد، كما غضب السلطان على جنوده من طائفة الإنكشارية بعدما انبطحوا أرضاً في مواجهة التجهيزات العسكرية الدفاعيّة والمدافع التي أعدها حاكم "بوغدان" في الغابة لصدّ تقدّم القوّات العثمانية، فسارع السلطان الفاتح على متن حصانه إلى صفوف العدو بشجاعةٍ محضّةٍ وبسالةٍ فائقة، ولعب دوراً حاسماً في قلبِ المِجَنّ على رؤوس أعدائه وتحقيق النصر المؤزّر، هذا فضلاً عن أن السلطان الفاتح سار بجواده إلى البحر بعد خسارة قائد الأسطول "بلطة أوغلو" المعركة البحريّة التي نشبت مع السفن الجنويّة بالقرب من ساحل منطقة "زيتين بورنو" إبان حصار القسطنطينية، ويقول المؤرخ هامر:

”إن السلطان محمد الفاتح فعل ذلك وكأنه أراد أن ينتزع النصر من بين أيدي الجنويين“.

كان السلطان محمد الفاتح رجل فعّالٍ وكفاحٍ لا أقوالٍ وانبطاحٍ، حيث خرج في خمسةٍ وعشرين غزوة على مدار حياته، ولم يكن يعلم أحدًا بوجهة غزوته حتى اللحظات الأخيرة بهدف الانقضاض على العدو بشكلٍ مفاجئٍ حتى يفوت الفرصة على العدو في تجهيز عدته وعتاده، وكان يرغب في أن يسيطر على البلاد التي أراد أن يفتحها دون حربٍ، خشية الإضرار بالبنية الاقتصادية لهذه البلدان، وكان يعرض على أهالي القلاع أو المدن التي يريد فتحها الاستسلام دون اللجوء إلى خوض حربٍ معهم.

كان السلطان الفاتح يحسب جميع تفاصيل الغزوة التي سيخرج فيها والحرب التي سيخوضها بدقة متناهية، ويضع خططًا بديلةً لمواجهة أيّ عقباتٍ تواجهه، وأفضلٍ مثالٍ على ذلك هو تفقّده لأسوار القسطنطينية عدّة مرّاتٍ قبل المبادرة إلى حصار المدينة وهو لا يزال في الحادي والعشرين من عمره، وتكليفه قادة جيشه تحديد نقاط القوة والضعف في هذه الأسوار، ثم بدأ بوضع الخطط وفق هذه المعطيات، وقد أصدر السلطان تعليماته بإنشاء قلعة الروملي في أنسب مكان بإسطنبول من أجل قطع أيّ مساعداتٍ تحاول الوصول إلى المدينة، وزوّد القلعة بالمدافع، ونصب مقرّ قيادته خلال الحصار أمام منطقة طوب قابي التي تُعتبر أضعف مكانٍ بأسوار القسطنطينية، وإذا وضعنا بعين الاعتبار أن الإمبراطور قسطنطين قد نصب مقرّ قيادة جيشه في المنطقة ذاتها من أجل أن يستطيع الدفاع عن هذه النقطة الضعيفة بشكلٍ أفضل، وكذلك

أن الجنود العثمانيين دخلوا المدينة من منطقة طُوبُ قَائِي؛ نفهم كيف أن توقّعات السلطان الفاتح كانت صائبةً ودقيقةً بشكل كبير، ويجب أن نتذكّر الحملة العسكريّة التي قادها السلطان وأدّت إلى تضييق الخناق تمامًا على الإمبراطورية البيزنطية وهدمت معنويات قادتها وجنودها؛ إذ عمد السلطان إلى إصدار تعليماته بتسيير سفن أسطوله من فوق اليابسة، في حركةٍ عجيبةٍ أدهشت أعداءه، ومن ثم أنزل سفنه إلى خليج القرن الذهبي ليحاصر المدينة من كلّ الجهات.

كان السلطان محمد الفاتح يتمتّع بشخصيّة عسكريّةٍ شجاعَةٍ وناجحةٍ، وكان في الوقت نفسه دبلوماسيًا حاذقًا وسياسيًا بارعًا، ويمكننا أن نصادف العديد من النماذج التي تثبت هذه الصفة في شخصيّة السلطان إذا وضعنا حياته تحت عدسة المجهر، فلقد أحسنَ السلطان في سنين حكمه الأول -بينما كان لا يزال يبلغ واحدًا وعشرين ربيعًا- معاملة الرسل البيزنطيين الذين وفدوا إليه بطلباتٍ جديدةٍ، ووافق على هذه الطلبات، ولم يظهر نيته ولم يُخفِ عدوّه، كما فضّل عقد معاهدة سلامٍ مع المجر وإيطاليا للحيلولة دون خروج حملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ، وبالرغم من علمه بتقديم الغالاطيين المساعدات للبيزنطيين خلال حصار إسطنبول إلا أنه تغاضى عن ذلك ولم يرد توسيع جبهة القتال، لكنه بادر عقب فتح المدينة على الفور إلى إخضاع أراضي "غالاطة" للسيطرة التركية، ولقد تصرّف السلطان بشكلٍ تنازليٍّ للغاية مع السفراء المجرّيين خلال غزوة "أوتلوكبلي" بهدف منع شنّ أيّ هجومٍ يأتي من أوروبا، حتى إن الوفد المجرّيّ ظن أن بإمكانه الحصول على كل ما يريد، غير أن السلطان ماظلم طيلة فترة الغزوة، ومن ثمّ رفض مطالبهم وسمح لهم بالمغادرة عقب انتهاء الغزوة مباشرةً،

وفي الوقت نفسه كانت الفرقُ الخاصة العثمانية تُغير بشكلٍ دائمٍ على أراضي البندقية، وهذا ما دفعهم إلى تقديم المساعدات للقرمانيين وقبيلة "آق قيونلو" عبر أسطول البندقية في البحر المتوسط.

لم تكن الحملات العسكرية التي قام بها السلطان محمد الفاتح عشوائيةً، بل كان يقوم بتخطيطٍ دقيقٍ لكلِّ حملةٍ يقوم بها، وإذا نظرنا إلى ما حققه في نهاية فترة تولّيه العرش نجد أنه نجح في تحقيق كلِّ أهدافه في البحر الأسود والبلقان وبحر "إيجّه" والأناضول، وكان قد حان الوقت المناسب لمباغطة روما والسيطرة على قلب النصرانية في عُقر دارها، وبدأ بالفعل يعدّ العدة لذلك، لكنّ المنيّة عاجلته قبل تحقيق ذلك.

يُعتبر السلطان محمد الفاتح شخصيةً عظيمةً اعترف لها أعداؤها قبل محيبتها بذكائها ودهائها، ولقد حوّل الدولة العثمانية إلى إمبراطوريةٍ حقيقيةٍ، وبنى الدولة على أُسسٍ لا تتزعزع، ولقد لعبت الدولة المتينة التي أسسها السلطان محمد الفاتح وأنظمة الجيش العملاقة التي أقرها؛ دورًا بارزًا ومحوريًا في التصدي للمخاطر والحملات التي شنّها الأوروبيون على للعالم الإسلامي والنجاح في صدّها في تلك الحقبة، وإن لم يكن العثمانيون قد وقفوا أمام الجيوش الصليبيّة كقلعةٍ منيعةٍ، لكان العالم الإسلامي قد تعرّض في تلك الحقبة للاحتلال الأجنبيّ الذي تفسّى وظهر جليًا في أراضيهِ في القرن العشرين، وأما السبب الرئيس لانعدام الهجمات الصليبيّة الكبرى على الأراضي الإسلاميّة في الفترة الواقعة ما بين القرنين الثالث عشر والعشرين فهو وقوف العثمانيين في وجه الجيوش الأوروبيّة ومنعها من تجاوز منطقة الروملي.

وللأسف فإنّ الإنسان لا يعرف قيمة الشيء الذي يمتلكه إلا بعد فقدانه، وإذا أردنا إدراك أهميّة الدولة العثمانية بالنسبة للعالم الإسلامي؛ فيجب علينا أن نتذكّر المآسي التي عاشها المسلمون عقب انسحاب الدولة العلية العثمانية من المشهد التاريخي بعد الحرب العالمية الأولى، حيث ظهرت عقب سقوط الدولة العلية العثمانية ظروف جديدة، وبدأ المحتلّون الأوروبيون يفعلون ما يحلو لهم في منطقة الشرق الأوسط، وظهرت الحدود الجديدة التي رسموها وفق مصالحهم، وكذلك خرجت إلى الساحة دولٌ مستعمرةٌ جديدةٌ أنشؤوها بأنفسهم، وسالت الدماء وانهمرت الدموع طيلة القرن العشرين وحتى الآن.

المصادر

Abdülkadir Özcan, "Akıncı Maddesi," Türkiye Diyanet Vakfı İslam Ansiklopedisi, İstanbul 1989, Cilt 2.

عبد القادر أوزجان، "مادة المغاوير"، الموسوعة الإسلامية بوقف الديانة في تركيا، إسطنبول (١٩٨٩)، المجلد الثاني.

Abdülkadir Özcan, "Atam Dedem Kanunu Fatih Kanunnamesi," Yitik Hazine Yay. İstanbul 2013.

_____، "رسالة قانون السلطان الفاتح: قانون آبائي وأجدادي"، دار يتيك خزينة للنشر، إسطنبول (٢٠١٣).

A. Adnan Adıvar, "Osmanlı Türklerinde İlim," Remzi Kitabevi, İstanbul 2000.

عبد الحق عدنان آديوار، "العلم عند الأتراك العثمانيين، دار رمزي للنشر، إسطنبول (٢٠٠٠).

Ahmet Şimşirgil, "Birincil Kaynaklardan Osmanlı Tarihi-Kayı II. Cilt," Şems Kitapları, İstanbul 2006.

أحمد شيمشيرجيل، "التاريخ العثماني من المصادر الأولية - قايي، المجلد الثاني"، دار شمس للنشر، إسطنبول (٢٠٠٦).

Ahmet Yaşar Ocak, "İstanbul'un Fethinin İdeolojik Arka Planı," 550. Yılında Fetih ve İstanbul Bildiriler, TTK. Yayınları, Ankara 2007.



أحمد ياشار أوجاق، "الخلفية الأيديولوجية لفتح إسطنبول"، بيانات حول إسطنبول والذكرى الـ ٥٥٠ للفتح، منشورات الجمعية التاريخية التركية، أنقره (٢٠٠٧).

Ahmed Bin Hanbel, "Müsned," IV. Cilt.

أحمد بن حنبل، "المسند"، المجلد الرابع.

Ali Sevim-Yaşar Yücel, "Klasik Dönemin Üç Hükümdarı: Fatih, Yavuz, Kanuni," TTK. Yay., Ankara 1991.

علي سفيم - ياشار يوجل، "ثلاثة سلاطين في الحقبة الكلاسيكية: محمد الفاتح، ياوز سليم، سليمان القانوني"، منشورات الجمعية التاريخية التركية، أنقره (١٩٩١).

Ali Sevim-Yaşar Yücel, "Türkiye Tarihi," TTK. Yayınları, Ankara 1995.

علي سفيم - ياشار يوجل، "تاريخ تركيا"، منشورات الجمعية التاريخية التركية، أنقره (١٩٩٥).

Ali Yardım, "Fetih Hadisi Üzerinde Bir Araştırma," Diyanet İşleri Baş. Dergisi XIII/2 (Mart- Nisan Sayısı),

علي يارديم، "دراسة حول فتح إسطنبول"، مجلة رئاسة الشؤون الدينية ٢/١٣ (عدد مارس - أبريل).

Alphonse de Lamartine, "Cihan Hâkimiyeti-Türkiye Tarihi," 3.Cilt, Tercüman 1001 Temel Eser.

ألفونس دو لامارتين، "السيطرة على العالم - تاريخ تركيا"، المجلد الثالث.

Âşık Paşaoğlu Tarihi," MEB. Yayınları, İstanbul 1992.

"تاريخ عاشق باشا أوغلو"، منشورات وزارة التعليم الوطني، إسطنبول (١٩٩٢).

Cahid Baltacı, "XV. ve XVI. Yüzyıllarda Osmanlı Medreseleri," Marmara Üniversitesi İlahiyat Vakfı Yayınları, İstanbul 2005.

جاهد بالطنجي، "المدارس العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر"، منشورات وقف الإلهيات بجامعة مرمره، إسطنبول (٢٠٠٥).

Carter V. Findley, "Dünya Tarihinde Türkler," Kitap Yayınevi, İstanbul 2008.

كارتر ف. فيندلي، "الأترك في التاريخ العالمي"، دار كتاب للنشر، إسطنبول (٢٠٠٨).

Daniel Goffman, "Osmanlı Dünyası ve Avrupa 1300-1700," Kitap Yayınevi, İstanbul 2008.

دانييل جوفمان، "العالم العثماني وأوروبا: ١٣٠٠ - ١٧٠٠"، دار كتاب للنشر، إسطنبول (٢٠٠٨).

"Doğuştan Günümüze Büyük İslam Tarihi," III. Cilt, Çağ Yay., İstanbul 1992.

"تاريخ الإسلام الكبير منذ النشأة إلى اليوم"، المجلد الثالث، دار جاغ للنشر، إسطنبول (١٩٩٢).

Ekmeleddin İhsanoğlu, "Eğitim ve Bilim," Osmanlı Medeniyeti Tarihi II. Cilt. Zaman Feza Yay., İstanbul 1999.

أكمل الدين إحسان أوغلو، "التعليم والعلم"، تاريخ الحضارة العثمانية المجلد الثاني، دار زمان فضاء للنشر، إسطنبول (١٩٩٩).

Erendiz Özbayoğlu, "550. Yılında Fetih ve İstanbul, Bildiriler," TTK. Yayınları, Ankara 2007.

أرينديز أوزباي أوغلو، "إسطنبول والفتح في ذكره الـ ٥٥٠: بيانات"، منشورات الجمعية التاريخية التركية، أنقره (٢٠٠٧).

Ergeni Raduşev, "Balkanlar ve Fetih," 550. Yılında Fetih ve İstanbul, Bildiriler, TTK. Yayınları, Ankara 2007.

أرجيني رادوشيف، "البلقان والفتح"، إسطنبول والفتح في ذكره ال ٥٥٠ :
بيانات، منشورات الجمعية التاريخية التركية، أنقره (٢٠٠٧).

Feridun Emecen, "Osmanlı Klasik Çağında Siyaset,"Timaş Yayınları, İstanbul 2009.

فريدون أمجان، "السياسة في العصر العثماني الكلاسيكي"، دار تيماش
للنشر، إسطنبول (٢٠٠٩).

Feridun Emecen, "Osmanlı Klasik Çağında Savaş,"Timaş Yayınları, İstanbul 2009.

_____، "الحرب في العصر العثماني الكلاسيكي"، دار تيماش للنشر،
إسطنبول (٢٠٠٩).

Feridun Emecen, "İlk Osmanlılar ve Batı Anadolu Beylikler Dünyası,"Kitabevi Yayınları, İstanbul 2005.

_____، "العثمانيون الأوائل وعالم إمارات غربي الأناضول"، دار كتاب
إيفي للنشر، إسطنبول (٢٠٠٥).

Feridun Emecen, "Osmanlı Siyasi Tarihi," Osmanlı Devleti Tarihi I. Cilt, Editör Ekmeleddin İhsanoğlu, Zaman Feza Yayıncılık, İstanbul 1999.

_____، "التاريخ السياسي العثماني"، تاريخ الدولة العثمانية المجلد
الأول، تحرير: أكمل الدين إحسان أوغلو، دار زمان قضاء للنشر، إسطنبول
(١٩٩٩).

Feridun Emecen, "Fetih ve Kıyamet,"Timaş Yayınları, İstanbul 2012.

_____، "الفتح والقيامة"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠١٢).

Franz Babinger, "Fatih Sultan Mehmed ve Zamanı,"Oğlak Yayınları, İstanbul 2003.

فرانز باينجر، "السلطان محمد الفاتح وعهده"، دار أوغلاك للنشر، إسطنبول (٢٠٠٣).

Fuad Köprülü, "Osmanlı İmparatorluğu'nun Kuruluşu," Akçağ Yayınları, Ankara 2003.

فؤاد كوبرلو، "تأسيس الإمبراطورية العثمانية"، دار آقتشاغ للنشر، أنقرة (٢٠٠٣).

Giacomo E. Carretto, "Akdeniz'de Türkler," TTK. Yayınları, Ankara 2000.

جياكومو ا. كاريتو، "الأتراك في البحر الأبيض المتوسط"، منشورات الجمعية التاريخية التركية، أنقرة (٢٠٠٠).

H.Çetin Arslan, "Türk Akıncı Beyleri ve Balkanların İmarına Katkıları," Kültür Bakanlığı Yay. Ankara 2001.

تشيتين أرسلان، "أمراء المغاوير الأتراك وإسهاماتهم في إعمار البلقان"، منشورات وزارة الثقافة، أنقرة (٢٠٠١).

Halil İnalçık, "Osmanlı İmparatorluğunun Klasik Çağı," YKY. İstanbul.

خليل إينالچيك، "العصر الكلاسيكي للإمبراطورية العثمانية"، دار يتيك خزينه للنشر، إسطنبول.

Halil İnalçık, "Osmanlılar; Fütuhât, İmparatorluk, Avrupa ile İlişkiler," Timaş Yayınları, İstanbul 2010.

خليل إينالچيك، "العثمانيون: الفتوحات، الإمبراطورية، العلاقات مع أوروبا"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠١٠).

Halil İnalçık, "Kuruluş Dönemi Osmanlı Sultanları," İsam Yayınları, İstanbul 2010.

خليل إينالجيک، "السلاطين العثمانيون في عهد التحرير"، وقف بحوث العلوم الإسلامية، إسطنبول (٢٠١٠).

Halil İnalçık, "Fatih Devri Üzerinde Tetkikler ve Vesikalar," T.T.K. Yay. Ankara 2007

خليل إينالجيک، "دراسة وثائقة حول عصر السلطان محمد الفاتح"، منشورات الجمعية التاريخية التركية، أنقره (٢٠٠٧).

Halil İnalçık, "Devlet-i Aliyye," İş Bankası Kültür Yayınları, İstanbul 2011.

خليل إينالجيک، "الدولة العليا"، المنشورات الثقافية لبنك إيش (العمل)، إسطنبول (٢٠١١).

Halil İnalçık-Mevlut Oğuz, "Gazavat-ı Sultan Murad B. Mehmed Han," TTK. Basımevi, Ankara 1989.

خليل إينالجيک - مولود أوغوز، "غزوات السلطان محمد بن مراد"، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقره (١٩٨٩).

Halil İnalçık, "Türk Devletlerinde Sivil Kanun Geleneği," Türkiye Günlüğü Dergisi, Sayı 58, 1999.

خليل إينالجيک، "تقليد القانون المدني في الدول التركية"، مجلة يوميات تركيا، العدد ٥٨، (١٩٩٩).

Hüseyin Algül, "Büyük Fetih ve Sonrası," Nil Yayınları, İzmir 1991.

حسين آلجول، "الفتح الكبير وما بعده"، دار النيل للنشر، إزمير (١٩٩١).

İbrahim Kafesoğlu, "Türk Milli Kültürü," Boğaziçi Yayınları, İstanbul 1993.

إبراهيم قفص أوغلو، "الثقافة القومية التركية"، دار بوغازيتشي للنشر، إسطنبول (١٩٩٣).

İlber Ortaylı, "Osmanlıyı Yeniden Keşfetmek,"Timaş Yayınları, İstanbul 2009.

إيلبر أورتالي، "إعادة اكتشاف العثمانيين"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠٠٩).

İlber Ortaylı, "Tarihimiz ve Biz,"Timaş Yayınları, İstanbul 2009.

إيلبر أورتالي، "نحن وتاريخنا"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠٠٩).

İlber Ortaylı-Taha Akyol "Osmanlı Mirası,"Timaş Yayınları, İstanbul 2010.

إيلبر أورتالي - طه أقيول، "الإرث العثماني"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠١٠).

İsmail Hakkı Uzunçarşılı, "Osmanlı Devleti'nin İlmiye Teşkilatı," TTK. Ankara 1998.

إسماعيل حقي أوزون تشارشيلي، "النظام العلمي في الدولة العثمانية"، الجمعية التاريخية التركية، أنقره (١٩٩٨).

İsmail Hakkı Uzunçarşılı, "Osmanlı Tarihi," Cilt II. TTK. Basımevi, Ankara 1995.

إسماعيل حقي أوزون تشارشيلي، "التاريخ العثماني"، المجلد الثاني، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقره (١٩٩٥).

İsmail Hakkı Uzunçarşılı, "Akıncı Maddesi," İslam Ansiklopedisi, 1940, I.Cilt.

إسماعيل حقي أوزون تشارشيلي، "مادة المغاوير"، الموسوعة الإسلامية، (١٩٤٠)، المجلد الأول.

İsmet Miroğlu, "Fetret Devrinden II. Bayezide Kadar Osmanlı Siyasi Tarihi,"Doğuştan Günümüze Büyük İslam Tarihi Ans. X. Cilt, Çağ Yay., İstanbul 1992.

عصمت مير أوغلو، "التاريخ السياسي العثماني منذ عهد الفترة إلى عهد السلطان بايزيد الثاني"، موسوعة التاريخ الإسلامي الكبير منذ النشأة وحتى اليوم، المجلد العاشر، دار تشاغ للنشر، إسطنبول (١٩٩٢).

Jean Paul Roux, "Türklerin Tarihi, Pasifikten Akdeniz'e 2000 Yıl," Kabalcı Yayınevi, İstanbul 2007.

جان بول رو، "تاريخ الأتراك: ٢٠٠٠ عام من المحيط الهادئ إلى البحر المتوسط"، دار قابالجي للنشر، إسطنبول (٢٠٠٧).

Josefh Von Hammer Burgstall, "Osmanlı Devleti Tarihi," Üçdal Neşriyat, İstanbul 1983.

جوزيف فون هامر - برجشتال، "تاريخ الدولة العثمانية"، دار أوتشدار للنشر، إسطنبول (١٩٨٣)

Levon Panos Debağyan, "Paylaşılamayan Belde Konstantiniyye," IQ Kültür Sanat Yayınları, İstanbul 2003.

ليفون بانوس ديباغيان، "القسطنطينية: المدينة التي لا تتجزأ"، دار آي كيو للثقافة والفن، إسطنبول (٢٠٠٣).

Machiavelli, "Hükümdar," Göçebe Yayınları, İstanbul 1997.

نيكولو مكيافيلي، "الحاكم"، دار جوتشبه للنشرة، إسطنبول (١٩٩٧).

Mehmet Zeki Pakalın, "Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü," MEB. Yayınları, İstanbul 1966.

محمد ذكي باقالين، "قاموس مصطلحات التاريخ العثماني"، إصدار وزارة التعليم الوطني التركية، إسطنبول (١٩٦٦).

Mehmet Ali Ünal, "Osmanlı Müesseseleri Tarihi," Isparta 1997.

محمد علي أونال، "تاريخ المؤسسات العثمانية"، إسبرطة (١٩٩٧).

Mehmed Neşri, "Kitab-ı Cihannüma, Neşri Tarihi," Yayınlayanlar: Faik Reşit Unat, Mehmet Altay Köymen, TTK Basımevi, Ankara 1987.

محمد نشري"، "كتاب جهان نامه، تاريخ نشري"، الناشر: فائق رشيد أونات، محمد آلتاني كويمان، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقره (١٩٨٧).

Mustafa Akdağ, "Türkiye'nin İktisadi ve İçtimai Tarihi," Cem Yayınevi, İstanbul 1995.

مصطفى آقداغ، "تاريخ تركيا الاقتصادي والاجتماعي"، دار جم للنشر، إسطنبول (١٩٩٥).

Mustafa Armağan, "Ufukların Sultanı, Fatih Sultan Mehmed," Timaş Yayınları, İstanbul 2010.

مصطفى أرماغان، "السلطان محمد الفاتح: سلطان الآفاق"، دار تيماش للنشر، إسطنبول (٢٠١٠).

Necdet Sakaoğlu, "Bu Mülkün Sultanları," Oğlak Yayınları, İstanbul 1999.

نجدت سقا أوغلو، "سلاطين هذا المُلْك"، دار أوغلاك للنشر، إسطنبول (١٩٩٩).

Nicolas Vatın, "II. Bayezid'in Diplomasi Araçları," Harp ve Sulh Osmanlılar, Editör Dejanirah Couto, Çeviri Şirin Tekeli, Kitap Yayınevi, İstanbul 2010.

نيكولا فاتين، "الوسائل الدبلوماسية لدى السلطان بايزيد الثاني"، العثمانيون في الحرب والسلام، تحرير: ديجانرا كوتو، ترجمة: شيرين تكيلي، دار كتاب للنشر، إسطنبول (٢٠١٠).

Nicolae Jorga, "Osmanlı İmparatorluğu Tarihi," Yeditepe Yayınları, İstanbul 2009.

نيكولا يورجا، "تاريخ الإمبراطورية العثمانية"، دار يديتبه للنشر، إسطنبول (٢٠٠٩).

Osman Turan, "Türk Cihan Hâkimiyeti Mefkûresi Tarihi," Boğaziçi Yayınları, İstanbul 1996.

عثمان توران، "تاريخ مفكورة الحاكمة العالمية التركية"، دار يوغازيتشي للنشر، إسطنبول (١٩٩٦).

Paul Wittek, "Devşirme ve Şeriat," *Türkiye Günlüğü Dergisi*, Sayı 58, 1999.

بول فيتيك، "الدوشرمه والشريعة"، مجلة يوميات تركيا، العدد ٥٨، (١٩٩٩).

Selahattin Tansel, "Osmanlı Kaynaklarına Göre Fatih Sultan Mehmed'in Siyasi ve Askeri Faaliyeti," TTK. Yayınları, Ankara 1999.

صلاح الدين تانسيل، "الأنشطة السياسية والعسكرية للسلطان محمد الفاتح وفق المصادر العثمانية"، منشورات الجمعية التاريخية التركية، أنقره (١٩٩٩).

Şehabettin Tekindağ, "Mahmut Paşa Maddesi," TDV. *İslam Ansiklopedisi*, İstanbul 1989.

شهاب الدين تكينداغ، "مادة محمود باشا"، وقف الديانة التركي، الموسوعة الإسلامية، إسطنبول (١٩٨٩).

Yılmaz Öztuna, "Büyük Osmanlı Tarihi," Ötüken Neşriyat, İstanbul 1994.

يلماظ أوزتونا، "التاريخ العثماني الكبير"، دار أوتوكن للنشر، إسطنبول (١٩٩٤).